السهم الأسود

روبرت لويس ستيفنسون

الناشر
دار الآفاق العربية

ستيفنسون، روبرت لويس
السهم الأسود
ط 1 ، القاهرة : دار الآفاق العربية 2018
174 ص ، 20 سم

1- القصص الاسكتلندية .

أ. العنوان 823

تدمك: 5 – 366 – 344 – 977 – 978
رقم الإيداع : 3735 / 2018
الطبعة الأولى
1439 هـ / 2018 م

جميع الحقوق محفوظة
لدار الآفاق العربية
نشر – توزيع – طباعة
55 شارع محمود طلعت من ش الطيران
مدينة نصر – القاهرة
تليفون : 00202- 22617339 تليفاكس : 00202-22610164

Emails: dar.alafk@yahoo.Com
selim.selim10@yahoo.com
daralafak2017@gmail.com
dar.alafk@Gmail.com

تعريف بالمؤلف

هو "**روبرت لويس بلفور ستيفنسون**" روائى وشاعر وكاتب اسكتلندى ويعد من اشهر كتاب ادب الرحلات ولد فى اسكتلندا عام 1850، درس الهندسة كوالدة ثم غير رأبة ودرس القانون و فى النهاية تغلبت علية نزعتة الى الادب.

ورغم حالتة الصحية الضعيفة التى عانى منها معظم حياتة الا ان حبة للسفر والترحال والمغامرات جعلة يقاوم امراضة.

سجل رحلاتة العديدة فى قصص قصيرة وكتب رحلات وقد اصبح مشهوراً.

عندما كتب اول عمل قصصي طويل له بعنوان (جزيرة الكنز) وعرفة العالم كلة من خلال روايته (دكتور جيكل ومستر هايد) عام 1880.

تزوج "**ستيفنسون**" من سيدة أمريكية عام 1880، وقد كان هذا الزواج بداية لأغظم فترة انتاجية فى حياتة، فقد نشر بعد زواجة معظم انتاجة الذى حقق لة شهرة واسعة فى انجلترا وامريكا علي السواء ومنها رواية (السهم الاسود) عام 1888.

وفى عام 1894 قام برحلة فى البحار الجنوبية و كتب روايتة الاخيرة (فاليما) ومات وتعد روايتة (السهم الاسود) او (قصة وردتين) كما نشرت بالانجليزنة هى رواية مغامرة تاريخية رومانسية وتدور احداثها على مدى ثلاثة عقود من عام (1455 حتى 1485) حول الاحق بكرسى العرش فى انجلترا بين انصار كل من عائلة "لانكاستر" وعائلة "يورك" المنتميين الى عائلة "بلانتاجانت"، وكان شعارهما الوردتين المختلفتين فى اللون (الابيض والاحمر).

- 1 -

السهم الأسود يوجه ضربة!.

بعد ظهر أحد أيام الربيع ، سمع الجميع جرس قلعة تونستال ذات الخندق المائي، فهرعوا جميعاً من الغابة والحقول تاركين أعمالهم ليروا ما يجري هناك ..

لقد ظهرت قرية **تونستال** إلى الوجود عام 1456 الميلادي، كانت تتكون من نحو عشرين منزلاً مبعثراً في الوادي الفسيح الذي ينحدر إلى النهر.

في الأسفل طريق يعبر النهر على جسر ليؤدي إلى الجانب الآخر من القرية ثم ينتهي إلى الغابة، والطريق يؤدي إلى قلعة **تونستال**، ، ومن هناك إلى كنيسة الغابة المقدسة (هوليود).

قرب الجسر تجمع رجل طويل يدعي "كليبسي"وست نساء.. لقد وصل قبل نصف الساعة رسول يحمل رسائل من السير "دانييل براكلي" إلى السير"أوليفر أوتس" قس القرية والمسئول عن القلعة في غياب السير "دانييل"..

سمعوا صوت صهيل جواد وخرج "ريتشارد شيلتون" من الغابة راكباً جواده فوق الجسر، إنه ربيب السير "دانييل"..

سألت امرأة المستر "شيلتون":

- لماذا يقرع الجرس؟

أجابها:

- لقد حضر رسول بأنباء عظيمة من السير "دانييل" الذي يريد أن يذهب كل الرجال إلى **كيتلي** في التو فسوف تنشب معركة وهيبة..

قالت المرأة:

- آه، إن هذه الحروب دمار لهذه الأرض التي نملكها، ولو حارب السادة لكان على تابعيهم أن يأكلوا الجذور..

- لماذا..؟ إن كل رجل يذهب إلى المعركة له راتب يومي: ستة بنسات..

قالت المرأة:

- هذا لو أنه عاش، لكن إن مات فلن يقبض شيئاً..

قال "شيلتون":

- لن يفعلوا أفضل من الموت من أجل سيدهم الطبيعي..

قال "كليبسي":

- إنه ليس سيدي الطبيعي، لقد حاربت لصالح أسرة "والسنجهام" من عامين وحسب، وأنا مجبر على أن أحارب لأجل "براكلي"، هل هذا طبيعي..؟ أن السير "دانييل براكلي" والسير "أوليفر أوتس" يعرفان من القانون أكثر مما يعرفان عن الشرف، ليس لي سيد طبيعي سوى الملك، والملك مجنون..

قال "شيلتون":

- عليك ألا تتحدث عن سيدي السير "دانييل" على هذا النحو، إنك ياعزيزي تكون في غاية الشجاعة حين يكون غائباً لكنني لن أخبره بما قلت.

قال "كليبسبي":

- لم أقل شيء يسوءك يا مستر "رتشارد"، فأنت مجرد صبي، لكنني حزين لأجل كل من يضحون بحياتهم في سبيل السير "دانييل"! وأنت ربيبه.!

قال "رتشارد":

- إن السير "دانييل" هو سيدي الرائع ووحيي..

قال "كليبسبي":

- إذن خبرني في أي جانب يقاتل: الحمر أم البيض[1] ؟

---

[1] في ذلك الحين نشبت معركة بين أكبر حزين في انجلترا، السادة الحمر السادة البيض، ودار القتال بين الحزبين حول من سيصبح ملك البلاد..

قال "رتشارد" في خجل، فقد كان سيده دائم التذبذب بين هذا الفريق وذاك الفريق:

- أنني لا أعلم..

قال "كليبسبي":

- آه، أنت لا تعمل،! ولا أحد يعرف.! لا أحد يعرف في أي جانب يقف..!

فجأة ظهر جواد آخر، وأقبل "بينيت هاتش" راكبا ومقبلا عليهم. كان قوياً وذا وجه أسمر ومسلحاً بسيف وحربة. إنه العون الأكبر للسير "دانييل" في الحرب والسلام والمدير لجميع شئونه.

صاح في "كليبسبي":

- اذهب يا "كليبسبي" في الحال إلى القلعة ومعك كل هؤلاء الرجال، علينا أن نرحل هذا المساء. هل "آبيليارد" العجوز هنا..؟

قالت امرأة:

- إنه في حقله..

اندفع الجميع صعوداً، سار "كليبسبي" على الجسر بتؤدة. بينما ركب "بينيت هاتش" و"شيلتون" جواديهما مما مخترقين القرية مارين بالكنيسة..وصلا إلى منزل "آبيليارد"، آخر منزل في القرية وخلفه حقل يمتد إلى حافة الغابة، ترجل "هاتش" عن جواده وسار و"رتشارد" في الحقل وإذا بجندي عجوز مستغرق في العمل والغناء مرتدياً ثوباً جلدياً اسمر الوجه بيد أن عينيه صافيتان وبصره حاد كأنه نسر.!

قال "هاتش":

- يا آبيليارد أن السير أوليفر أوتس يريدك أن تذهب الآن إلى القلعة لتقود الرجال..

تطلع إليه العجوز وسأله:

- وإلى أين أنت ذاهب يا سير "هاتش"؟.

- أنني ذاهب إلى "كيتلي" مع كل رجل تستطيع الحصول عليه، سينشب قتال وسيدي هناك وفي حاجة إلى المزيد من الرجال..

قال "آبيليارد":

- مفهوم أنك ستأخذ كل الرجال إلى "كيتلي"، وعلى البقاء هنا لحراسة القلعة، كم رجلا ستعطيني لهذه المهمة؟.

قال "هاتش":

- ستة رجال والسير "أوليفر"..

أجابه "آبيليارد" قائلاً:

- هذا لا يكفي لحراسة المكان، إنني في حاجة إلى أربعين رجلاً من الأكفاء، رجال يقدرون على إطلاق السهام عن بعد..!

- ماذا تقصد بـ: عن بعد.؟!

- رمية سهم طويلة من هنا إلى الغابة..

قال" آبيليارد" عبارته وهو يتلفت تجاه الغابة، نهض من مكانه وراح يحدق..

سأله "هاتش":

- فيم تحدق؟

أجابه "آبيليارد" قائلاً:

- الطيور، فإنها حين تحلق في الهواء على هذا النحو فلتؤكد أن هناك من يختبئ.

قال "هاتش":

- ومن يجرؤ على الاختباء هناك؟ ليس هنا من أعداء.

قال "آبيليارد":

- إنني أعرف الكثير من الرجال سيكونون في غاية السعادة لو صوبوا إلى أي واحد منا، فهم يكرهوننا..

قال "هاتش":

- أجل

قال "آبيليارد":

- وهم يكرهون السير "دانييل" وكل رجل في خدمته، لكنهم أشد كرهاً لك يا "بينيت هاتش" كما يكرهونني، ولو أن هناك رجلاً يقف على حافة تلك الغابة وأستطاع رؤيتنا وأراد أن يصوب سهماً في مقتل فمن منا يختار يا ترى..؟!

قال "هاتش":

- أنت على ما أظن..

قال "آبيليارد":

- كلا، أظنه سيصوب إليك أنت، أنت حرقت ودمرت منزل "جريستون"، ولن يسامحوك مطلقاً، إنني رجل عجوز وموشك على الموت، ولكنك يا " بينيت" فإنك لو وصلت إلى سني هذا بدون أن يشنقوك أو يرموك بسهم، فإنني سأقول أنه لا يوجد رجال حقيقيين في انجلترا.

قال "هاتش":

- استمر، عليك أن تفرغ من عملك هنا وتسرع إلى القلعة، إنك ثرثار..!

انطلق سهم في الهواء في تلك اللحظة فأصاب "آبيليارد" العجوز بين كتفيه فسقط على وجهه، أطلق "هاتش" صرخة وقفز في الهواء، ثم اختبأ خلف جواده أما "رتشارد شيلتون" فسقط خلف شجرة وجهز قوسه للإطلاق تجاه

حافة الغابة.. لكن لا شيء يتحرك، الاغنام تأكل العشب في أمان، والطيور كفت عن التحليق في الجو فوق الأشجار، لكن رقد العجوز والسهم في ظهره، بينما يختبئ "هاتش" خلف حصانه و"رتشارد" خلف الشجرة..

قال "هاتش":

- هل ترى أي شيء..؟!

قال "رتشارد" يجيبه:

- لا..

- لا تستطيع أن نترك العجوز ملقياً هناك. عليك بمراقبة الغابة يا مستر "شيلتون"، راقبها بدقة..

خرج ورفع العجوز على ركبتيه، إنه لم يمت بعد، لكن وجهه يحتقن من فرط الألم.

قال "آبيليارد":

- انزع السهم فأموت..
- نادى "بينيت هاتش"
- يا "رتشارد" .. تعالى وانزع السهم فهو يريد أن يموت..

أقبل "رتشارد شيلتون" واستخرج السهم فانبثق الدم بغزارة وهوى العجوز صريعاً، كان "هاتش" راكعا يتلو صلاته لكنه يتابع بعينيه الموضع الذي انطلق منه السهم، كان وجهه قد شحب من الرعب.

قال:

- سيحين دوري بعده..

سأله "رتشارد" وهو ما يزال ممسكاً السهم في يده:

- من فعلها يا "بينيت" ..؟

أجابه:

- من يدري..؟ هناك مائتا شخص طردناهم من منازلهم ولقد دفع الثمن وسرعان ما ألحق به، إن السير "دانييل" شديد القسوة على الناس..

قال "رتشارد":

- هذا السهم منظره غريب، إنه أسود والريش فوقه أسود، وهناك كتابة عليه، لـ"آبيليارد" من "جون العادل بين الجميع".

- "جون العادل" ..! إن اسم غريب، لكن لماذا تقف هنا ليرمينا بالسهام؟ علينا أن نحمل "آبيليارد" إلى منزله.

حملا الرجل العجوز إلى منزله ووضعاه أرضاً ونظر "هاتش" حول الغرفة وقال:

- إن للعجوز نقوداً وسيسعده أن يأخذها أعز أصدقائه..

قال "رتشارد":

- تعال؟! هل تسرق نقود الرجل أمام جثته؟..

ها انفتح الباب ودخل رجل أحمر الوجه في الخمسين من العمر، إنه السير "أوليفر أوتس"..

صاح:

- "آبيليارد"..! يا للسماوات..! ما هذا؟.

قال "هاتش":

- لقد قتلوه أمام باب منزله..

جلس السير "أوليفر"، امتقع وجهه، تلا صلاة ثم سأل:

- من العدو الذي فعلها؟

قال "رتشارد":

- إليك هذا السهم وهناك كتابة فوقه

نظر السير "أوليفر" إلى السهم وقال:

- آه.. "جون العادل"، وهذا سهم أسود..

سأله "هاتش":

- هل تعتقد أن "جون العادل" واحد من أسرة و"بزنجهام" أم من أسرة "داكويرث"؟

قال السير "أوليفر":

- كلا، كلا، ليس هو، هذه الأشياء لا تأتي من عامة الناس بل أن رجلاً عظيماً هو الذي يخطط لهذه الأمور..

قال "هاتش":

- كنت أتوقع المتاعب منذ زمن طويل، وكذلك "آبيليارد"، لقد ارتكبتم فظائع كثيرة، سرقتم بضائع الناس، وضربتم ناس وشنقتم ناس، والذين تم سرقتهم والذين ضربوا غاضبون، وذات يوم سيأخذون أقواسهم ويرمونكم بسهامهم..

قال السير "أوليفر":

- كلا، إنك على خطأ!

قال "بينيت":

- لن أقول المزيد، حان موعد الرحيل..

نهض السير "أوليفر" قائلاً:

- لن يستطيع آبيليارد الآن أن يحرس القلعة سوف احتفظ بك يا "بينيت"، يلزمني رجل ممتاز في وقت الأسهم السوداء، حسنا، دعنا نركب الجياد فسوف يجتمع الناس في الكنيسة.

انطلقا على الطريق، وخلفهما بدأت السحب تتبلد وتغطي شمس الأصيل، مرا بالقرية وانتهيا إلى الكنيسة..

قرب البوابة كان عشرون من الرجال قد اجتمعوا، البعض يركب الجياد والبعض الآخر يقف إلى جوار الجياد.. البعض يحمل الحراب والبعض الأخر يحمل الأقواس.. وكان ثمة رجل يتسلل مبتعداً بين الأشجار في فناء الكنيسة.

صاح "بينيت":

- من هناك...؟ قف لو كنت رجلاً بالفعل؟

فانطلق رجل بأقصى سرعة في اتجاه الغابة، تعقبه أولئك الذين يركبون الجياد بينما صعد الآخرون إلى جيادهم، حاول "هاتش" أن يقفز بجواده عبر الجدار، لكن الجواد توقف فجأة وأسقط صاحبه على الأرض.

كان "رتشارد" أعقل الجميع، فبدلاً من أن يشترك مطاردة لن تجدي عمد إلى قوسه وتناول سهما..

وقال لـ"بنيت":

- هل أصوب..؟

صاح السير "أوليفر":

- صوب!صوب!

وقال "هاتش":

- نعم، ألقه أرضاً..

كان الهارب في مرمى أمن، فالضوء ضعيف لأن المساء قد حل على الكون، وفي ضوء المساء الشاحب لن تكون الرمية صائبة. انطلق السهم وسقط الرجل وانطلقت صيحة فرح من "هاتش" والمطاردين. قفز الرجل على قدميه مرة أخرى التفت ورفع قبعته واختفى داخل الغابة..

سأل السير "أوليفر":

- الآن ماذا كان يفعل عند الكنيسة؟ وأنت يا "كليبسبي" ترجل عن جوادك وتحرك وانظر بين الأشجار فقد تعثر على شيء.

ذهب "كليبسبي"، وسرعان ما عاد يحمل ورقة قائلاً:

- هذه الكتابة كانت مثبتة على باب الكنيسة..

وأعطى الورقة للسير "أوليفر"، الذي قال:

- على باب الكنيسة! إن الضوء ضعيف يا مستر "رتشارد" الطيب، إن لك عينيني شابتين فاقرأ المكتوب في الورقة من فضلك..

تناول "رتشارد" الورقة وراح يقرأ:

"في قوسي أربعة سهام سوداء.. أربعة للأحزان التي طالما عرفتها.. أربعة بعدد الرجال الأشرار...

الذين تسببوا في الأذى لي ولا يزالون .. انطلق سهم منها وادي مهمته .. فقد مات العجوز "آبيليارد" ومضى .. واحد آخر للمستر "بينيت هاتش" .. الذي أحرق "جريمستون"، الجدران والأسطح .. والثالث للسير "أوليفر أوتس" .. الذي قطع رقبة السير "هاري شيلتون" .. والرابع يا سير "دانييل" باسمك .. وستكون اللعبة بارعة للغاية .. وستؤدون فيها جميعاً الأدوار .. ولكل سهم أسود مستقر في كل قلب أسود .. توقيع "جون العادل" بين الجميع..

ملاحظة: لدينا سهام أكثر عدداً وحبل متين لشنق منه يتبعونكم"..

صاح السير "أوليفر":

- أيها السادة..! إنه لعالم شرير يزداد سوءاً يوماً بعد يوم، أقسم إنني بريئ من قتل ذلك الفارس العظيم، لم تقطع رقبة السير "هنري شيلتون"، وهم على خطأ في ذلك.

قال "بينيت":

- ليس هذا أوان الحديث في ذلك

صرخ السيد "أوليفر":

- آه.. بل أنه أنسب وقت! إنني أود أن يعرف الجميع أن الذنب لم يكن ذنبي، إنني حتى لم أكن في القلعة فقد كنت بعيداً قبل الساعة التاسعة..

صاح "هاتش":

- يا سير "أوليفر" ..! إن لم تكف عن ذلك سأضطر إلى وضعك عنوة على ظهر جوادك..!

وبينما الرجال يمتطون جيادهم تحرك "بينيت" مقترباً من القس وهمس في أذنه، رأى "رتشارد" عيني القس تتحولان إليه وإذا فيهما نظرة ارتياع، هناك سبب! لقد كان السير "هاري شيلتون" والد "رتشارد"!

تحدث السير "أوليفر" و "بينيت" وقررا ما يعقب ذلك من خطوات!

لقد قررا أن يحرس القلعة عشرة رجال ويقومون بحماية السير "أوليفر" في الغابة، سيمكث "بينيت" في القلعة على حين يصحب "رتشارد" الرجال إلى السير "دانييل"..

دخل السير أوليفر القلعة ليكتب خطاباً للسير دانييل يحكي له ما حدث..

قال بينيت لـ"رتشارد":

- عليك أن تمضي في طريق دائري طويل، در حول الجسر، واحتفظ بالرجال على مبعدة خمسين ياردة أمامك وتقدموا بمنتهى الحذر حتى تصيروا أمام الغابة، لو هاجموكم اركبوا الجياد ولا تلتفتوا: فلن تأتيك النجدة من **تونستال**، احذر السير "دانييل" فإنه لا يوثق فيه ولا تثق بالسير "أوليفر"، فإنه لا ينوي شراً وإنما ينفذ ما يأمره به الآخرون، أما عني أنا فكن عطوفاً تجاهي، ففي العالم يوجد من هم أكثر سوءاً مني، وليكن الله معك!

قال "رتشارد":

- ومعك يا "بينيت"، إنك صديق مخلص..

أعطى السير "أوليفر" رسالة لـ"رتشارد" مكتوب عليها:

"إلى سيدي السير "دانييل براكلي"، يسلم إليه على وجه السرعة"..

أسرع "رتشارد" بالاتجاه غرباً من خلال القرية..

***

- 2 -
أين المسترجون؟...

كان السير "دانييل" ورجاله في **كيتلي**، أنه جالس قرب النار في الخان، وفي الجانب الآخر من الحجرة جلس اثنا عشر رجلاً، وبالقرب من السير "دانييل" يرقد صبي في نحو الثالثة عشرة، يرقد نائماً على الأرض. بعد برهة بدأ يتحرك، نهض واقفاً يتطلع حوله بعينين فزعتين..

وقال له السير "دانييل":

- تعال هنا، يا مستر "جون".

تحرك الصبي تجاهه في تؤدة.

وضحك السير دانييل وقال:

- ها، إنك صبي رائع..

التهب وجه الصبي بحمرة الغضب ونظرة كراهية تتضح من عينيه إلى الرجل، بدأ الصبي أكبر من سنة لوجهه المهموم رغم ضآلة بدنه.

قال:

- هل ناديتني يا سير "دانييل"؟ دعوتني لتسخر مني؟

أجابه السير "دانييل":

- كلا، لكن لو أمكنك أن ترى نفسك لضحكت..

قال الصبي:

اضحك كلما أمكنك ذلك .. وستدفع جزاء ذلك حيت يتم محاسبتك على كل ما جنت يداك..

لا، لا تظنيني أنني أسخر منك – فيما عدا أنك صديقة، إنني أرتب زواجاً رائعاً لك. وسأعني بك عناية تامة. حقاً إنني آخذك بالشدة. لكنني سوف

أخدمك بكل سرور، سوف تكونين السيدة "شيلتون" فيما أحسب أو الليدي "شيلتون". فإنك تؤدين دور الصبي ببراعة فائقة، فهل تخشى ضحكة.. ؟ يا صاحب الخان..!

- إلينا بطعام للمستر "جون"، اجلسي يا عزيزتي وتناولي طعامك.

قال المستر "جون":

- كلا، لن أكل معك، يا صاحب الخان إنني أطلب منك مجرد قدح من الماء..

قال له الفارس:

- كل..!

لكن المستر "جون" لن يفعل، شرب الماء ثم تلفع بمعطفه وجلس في الركن القصي من الحجرة..

بعد نحو الساعة سمعت صيحات:

- قفوا..! من يسير هناك..؟

وضجة جياد، ثم فرقة من الرجال توقفت قرب باب الخان ودخل "ريتشارد شيلتون".

صاح الفارس:

- مرحي "رتشارد شيلتون" ..

تطلع الصبي من ركنه القصي ليرى القادم..

قال "رتشارد":

- فلنقرأ يا سيدي هذه الرسالة من السير "أوليفر" .. وعليَّ أن أخبرك بأن تسرع بالذهاب إلى **وبزنجهام**. فبيننا نحن في طريقنا إليك لقينا رجل أخبرنا بهزيمة اللورد **بزنجهام** في المعركة وهو في خطر وفي حاجة ماسة إليك..

- انهزم..! حسن، لن أسرع بالذهاب وإلا تعرضت للخطر أنا الآخر، دعني أولاً أعاين الرجال الذين جلبتهم معك..

خرج السيد "دانييل" إلى الشارع ونظر إلى جنوده الجدد على ضوء مصباح، لم يكن هناك من يحبه. فهو مكروه حتى من خدمة. لم يحبه سوى من يصحبونه إلى ساحة المعركة. فقد كان عنيفاَ وشجاعاً ويفكر في راحة رجاله ويعرف متى يضحك..

قال:

- حسن أنه يبدو عليهم البؤس، أيها الأصدقاء سنركب إلى مقدمة المعركة، فلو انهزمتم لن تشكلوا خسارة جسيمة مرحي! "كليبسبي"!!، أنت هنا؟ أيها الفأر العجوز! لن أبكي لو فقدتك وستكون في مقدمة الجميع.. عليك أن ترينا الطريق.

قال "كليبسبي":

- سوف أريكم أي مكان وأي طريق يا سيدي فيما عدا طريق تغيير الاتجاهات..!

ضحك السير "دانييل"، وصاح:

- أحسنت القول..! يا "شيلدن" هات الطعام للرجال والخيل..

ودخل إلى الخان.

قال:

- والآن يا "رتشارد" تناول طعامك إلى أن أفرغ من القراءة..

فتح السير "دانييل" الرسالة وبينما هو يطالعها أربد وجهه من الغضب، ثم نظر إلى "رتشارد" وسأله:

- هل رأيت هذه الورقة..؟
- أجل..
- ان فيها اسم أبيك وأن السير "أوليفر" قد قتله..

قال "رتشارد":

- لقد ذكر السير "أوليفر" أن هذا كذب..
- مرحي .. هل قال ذلك..؟ ذات يوم حين يتوفر لي الوقت يا "رتشارد" سوف أخبرك بكل شيء.. كان هناك رجل يدعي "داكويرث" اتهموه بقتل والدك لكن سادت الاضطرابات وتعذر تحقيق العدل..

سأله "رتشارد":

- لقد مات والدي مقتولاً في القلعة، أليس كذلك..؟
- كان ذلك بين القلعة والغابة المقدسة..

ونظر في قلق إلى "رتشارد" مندهشاً كيف الأمر..

قال:

- والآن تناول طعامك بسرعة وسأعيدك إلى **تونستال** برسالة..

بدا "رتشارد" حزينا وقال:

- إنني أناشدك يا سيدي أن ترسل غيري ودعني أشارك في المعركة، أنني أعرف كيف استعمل السيف..

قال السير "دانييل":

- إنني واثق أنك تعرف، لكن ليس من المجد أن تنهزم في المعركة، سأمكث في **كيتلي** إلى أن علم أي جانب ستكون له الغلبة والنصر فأنضم إليه.. لست خائفاً بل لدي فصاحة وحكمة..

وجلس إلى مائدة وشرع يكتب رسالته وبدأ "رتشارد" يأكل وإذا بيد تلمس ذراعه وبصوت يهمس في أذنه:

- من فضلك لا تصدر صوتاً، لكن أخبرني بالطريق الموصل إلى الغابة المقدسة، إنني أتوسل إليك أيها الصبي الطيب لتقدم العون لشخص في خطر عظيم وتوصله إلى بر الأمان..

قال "رتشارد":

- إنه الممر الذي يمر بطاحونة الهواء وسيأخذك إلى النهر وهناك تسأل فيدلونك.. وبدون أن يدير رأسه مضى في طعامه، لكن من طرف عينه رأى المستر "جون" وهو يتسلل خلسة من الحجرة، **وراح يفكر في دهشة:**

- لماذا..! إن صبي مثلي، وهو يدعوني بالصبي الطيب، ربما أمكنني اللحاق بي عند المستنقع! وحينئذ أعلمه آداب السلوك..

بعد نصف الساعة أعطى السير "دانيال رتشارد" الرسالة فهرع بها "رتشارد" مسرعاً ليعود إلى القلعة..

بعد ما يقرب من الساعة من ذهاب "رتشارد" وصلت رسالة من اللورد "ريزنجهام" **تقول:**

"بدأت المعركة مرة ثانية ذلك الصباح ودمرنا ميمنتهم ولم يعد سوى المركز فلو أحضرت رجالك فسيتم لنا النصر العظيم، وستحظي بالشرف والمجد.."

قال السير "دانييل":

- كنت بانتظار هذه اللحظة لأرسل النجدة..

وأصدر أوامره فإندفع رجاله كالسيل إلى الشارع..

وقال:

- إنهم أفضل الجند ليكونوا في خدمتكم..

قال رسول اللورد "ريزنجهام":

- إنهم جند رائعون وإنني لحزين لأنهم لم يشاركوا منذ البداية..

صاح السير "دانييل":

- "جون"! "جوانا"! أين هي..؟ يا صاحب الخان..!
- أين الفتاة..؟
- البنت يا سير دانييل..؟ إنني لم أبصر بأية فتاة..

قال السير "دانييل":

اذن ، الصبي .. الم تلاحظ انها بنت في ثوب ولد ..؟ لقد ناولتها قدح ماء فإين هي ؟

قال صاحب "الخان":

- مرحي، وأنت تدعوها المستر "جون" ..! حسن . لقد ذهبت. لقد شاهدتها على جواد رمادي منذ ساعة..

قال السير "دانييل":

- تركب جوادا..! إنها تساوي عندي خمسمائة جنيه..

قال رسول اللورد:

- يا سير "دانييل" إلى أن تنتهي من صياحك من أجل خمسمائة جنيه ستضيع انجلترا وتخسر معركة..

قال السير "دانييل":

- حقاً، خذ ستة رجال يا "شيلدن" وطاردوا البنت!

حين أعود إلى القلعة يجب أن أراها هناك. والآن أيها الرسول هيا بنا إلى المعركة..

رحل الجند وغادر "شيلدن الخان" برفقة الجنود الستة..

***

- 3 -
في المستنقع

كان الوقت يناهز السادسة من صباح أحد أيام شهر مايو حين شرع "رتشارد" في الهبوط إلى المستنقع .. والسماء صافية والريح تهب في ثبات والأعشاب والأشجار قرب المستنقع تتراقص في النسيم العليل.

ورغم أن "رتشارد" لم ينزل عن جواده طيلة الليل فإنه لم يشعر بأي إرهاق .. كان الممر ينحدر إلى المستنقع إلى أن استطاع "رتشارد" أن يرى طاحونة الهواء الكائنة **بكيتلي** خلفه وأمامه كانت غابة **تونستال**.

وعلى الجانبين رأى العشب الطويل، والماء والأرض الخصبة .. لقد شق الرومان الممر، لكن بعض أجزائه تهاوت إلى أن غمرته المياه..

بعد مسيرة نحو الميل وصل "رتشارد" إلى ثغرة في الممر، ربما تكون خطراً على الغرباء، هنا قفز المستر "جون" إلى ذهن "رتشارد" وندك لكونه لم يحذره، إن لـ"رتشارد" معرفة وثيقة بالطريق ومن هنا كان سيره في حذر وبغير تعجل.

حين وصل إلى منتصف الطريق سمع ضوضاء وشاهد جواداً يتخبط في الماء، **نظر إليه المسكين في رعب فصاح "رتشارد":**

- آه هل غرق الصبي المسكين؟ هذا هو جواده، لكنني لم أقف مكتوف اليدين إلى أن يغرق الجواد..

سحب "رتشارد" سهماً وصوبه إلى الجواد، ثم قاد جواده متطلعاً في كل مكان بحثاً عن الصبي. وهو يحدث نفسه:

- ليتني أخبرته بالمزيد، أخشى أن يكون قد غرق..

وبينما هو يفكر في الأمر سمع صرخة فتطلع إلى الخلف وإذا بالمستر "جون" يتطلع إليه من بين العشب..

صاح "رتشارد":

- آه.. أهو أنت؟ لقد أحسنت الاختباء، ولقد مررت بك ولم أرك. لقد شاهدت جوادك وخلصته من آلامه، كان مفروضاً أن تفعل أنت ذلك.

فقال الآخر وهو يخرج من مخبئه:

صبي رائع، ليس لدي سهام ولا قوس فلكيف أريحه من آلامه؟

قال "رتشارد":

- لماذا تدعوني بالصبي؟ أنك لست أكبر مني..

- فلتغفر لي يا عزيزي الطيب مستر "شيلتون" فلم أقصد إغضابك بل أطلب عطفك وعونك. فقد ضللت طريقي، وفقدت معطفي وجوادي، وأنا مبتل للغاية..

- ما معنى أنك مبتل..؟

- أرجو أن تسديني النصيحة يا مستر "رتشارد" ماذا عليَّ أن أفعل؟ إنني لم أصل إلى الغابة المقدسة أتحطم!

- سأمنحك ما يفوق النصيحة .. إليك جوادي بينما أعدو أنا إلى جانبك وحين أتعب نتبادل الركوب، وبهذه الطريقة العدو والركوب سنسرع بالوصول.

واصلا الرحلة، والصبي راكب الجواد بينما يعدو "رتشارد" إلى جوارهما..

سأل "رتشارد":

- ما اسمك؟

- سمتي "جون ماتشام"..

- ولماذا أنت ذاهب إلى الغابة المقدسة؟

- لأنجو من رجل، رجل شرير يدوي إيذائي..
- وما صلتك بالسير "دانييل"؟

لقد اختطفني بالقوة .. اختطفني من موطني وألبسني هذه الثياب وانطلق به معه وسخر مني وحين طاردنا أصدقائي أردفني خلفه على ظهر الجواد لا تلقي سهم بدلا منه، ولقد أصاب سهمي قدمي اليمني فلا أقدر على السير سالماً، لكن سيأتي وقت سيندم فيه كثيراً..

قال "رتشارد":

- أوه، أنك لا تستطيع أن تنال منه فهو جندي باسل ولو عرف إنني عاونتك على الفرار سيجعلني أندم كثيراً..

قال المستر "جون":

- آه .. أيها الصبي المسكين، أنك ربيبه وأنا أعرف ذلك وأنا كذلك، لقد اشترى الحق في أن يزوجني..

قال "رتشارد":

- هل تعيد على مسامعي كلمة الصبي..؟
- وما المانع؟ هل أدعوك بالبنت..؟

قال "رتشارد":

- كلا فإنني أكره البنات، إنني أحب الصيد والمبارك وأن أعيش في الغابة ولا معرفة لي بأية فتاة حتى اللحظة .. ما عدا واحدة وتم حرقها وهي ترتدي ثياب الرجل وتعمل بالسحر..

صاح المستر "جون":

- آه، إنني أرثى لها..

- أجل، أرت لها، إنها جان دارك..!

قال المستر "جون":

- لو أنك تحب البنات ولو قليلا فلست رجلاً طبيعياً، فالله خلق البنات أهلا للإنسان وراحة..

قال "رتشارد":

- أنت طفل، فماذا تتحدث كثيراً عن النساء..؟ وإذا كنت لا تعتبرني رجلاً بحق فأهبط هن الممر وقاتلني بالسيف أو القوس أو بيديك وسأبرهن لك إن كنت رجلاً أم لا..!

قال المستر "جون" متراجعاً:

- كلا، كلا، إنني لست محارباً ولم أقصد أن أغضبك وإذا كنت أتحدث عن النساء فلأنني سمعت أنك ستتزوج..

صاح "رتشارد":

- أنا أتزوج؟ أنها المرة الأولى التي أسمع فيها هذه الحكاية، ومن هذه التي سأتزوجها..؟

أجابه المستر "جون":

- فتاة تدعى "جوانا سيدلي"..

قال "رتشارد":

- أوه! ولماذا يرغمونني على زواجها..؟

أجابه المستر "جون":

- إن السير "دانييل" يريد هذا فسيحصل على المال منك ومنها، لو تزوجتها. لكنني سمعت أن الفتاة تبكي ولا تريد الزواج، يبدو أنها لا تحب أن تتزوج وربما لأنها لا تحب الزوج المقترح..

قال "رتشارد":

- حسن، الزواج كالموت، فلا يترك أحداً، لكن يا لها من فتاة حمقاء لتبكي من الزواج بي قبل أن تراني .. فلو أردت أنا أن أتزوج فإنني أفعل بغير بكاء .. فلو كنت تعرف الفتاة أخبرني عنها. ما شكلها؟ أهي دميمة أم حسناء؟ وهل اخلاقها حميده؟

- وماذا يهم؟ إن كنت مجبراً على زواجها فإن ذلك سيتم بالتأكيد!

قال "رتشارد":

- حقا، وإنني لا أعبأ بمنظرها..

- إنها أن تزوجتك تظفر بزوج لطيف، زوج مصنوع من خشب..

- آوه، ! أأنا مصنوع من خشب؟ حسن، إنه خشب ممتاز لأنني أسير وأنت تركب حصاني.

- سامحني يا "رتشارد"، إنك أطيب قلب في انجلترا!

قال "رتشارد"

- لا بأس..

هنا انطلق صوت نفير..

صاح المستر "جون" بوجه شاحب من الرعب:

- آه! لقد اكتشفوا فراري..

قال "رتشارد":

- لا تخف، فنحن بعيدان عنها كثيراً، ونحن قرب النهر..

عاد المستر "جون" إلى صياحه:

- أوه!سيأخذونني!

- ماذا يجري الآن؟ إنني حزين لأنك صبي جبان، فاسمع! إنني "رتشارد شيلتون" أقسم أن أوصلك سالماً إلى الغابة المقدسة فأنس حزنك ورعبك أيها المستر "الوجه الأبيض". انطلق بالجواد أسرع. هيا! لا تشغل نفسك بي فإنني أقدر على العدو كالغزال..

- فانطلق المستر "جون" بالجواد كالريح و"رتشارد" يعدو إلى جواره إلى أن وصلا إلى ضفة النهر..

***

- 4 -
عبور النهر

بين عدد ضئيل من الجزر يجري نهر "تل" في تؤدة وعلى مهل، وهو عبارة عن مجرى مائي غير بديع المنظر بيد أنه في ذلك الصباح المشرق بدا كل شيء بديعاً.

عبرت الريح فوق النهر فمسته مساً رقيقاً كما بعثرت الشمس لألئها في الماء خلال آلاف الأمواج الصغيرة..

انطلق مجرى مائي جانبي صغير صاعدا ليلتقي بالممر، وقرب ضفة النهر ينتصب كوخ المراكبي..

ذهب "رتشارد" وفتح باب الكوخ الصغير، كان المراكبي راقداً متدثراً بمعطف قديم، مريضاً..

قال لـ"رتشارد":

- مرحي يا مستر "شيلتون" أتود عبور النهر ..؟ الآن وقت خطر فرجال السهم الأسود منتشرون ومن الأفضل أن تعود إدراجك خلال الجسر.

قال "رتشارد":

- كلا، إنني في عجلة من أمري..

قال المراكبي:

- حسن، كما تشاء ولن أقول المزيد لكنك ستكون محظوظاً لو وصلت القلعة..

وحين لمح "جون" "ماتشام" سأل "رتشارد":

- من يكون؟

أجابه "رتشارد":

- إنه صديقي المستر "ماتشام" ..

قال "ماتشام" وهو يقود الجواد إلى الأمام:

- طاب يومك، من فضلك أعبر بنا النهر فإننا في عجلة من أمرنا..

تفحص المراكبي المستر "جون" فاحمر وجهه خجلاً..

وضع "رتشارد" يده على كتف المراكبي وصاح به:

- الآن ابدأ عملك..

حل المراكبي قاربه ودفعه إلى الماء العميق بينما قاد "رتشارد" الجواد يتبعه المستر "جون"..

قال المراكبي وهو لا يزال يحدق في المستر "جون":

- أنت ضئيل للغاية، وشكلك غير مناسب لصبي..

صاح فيه "رتشارد":

- لا تسرف في الحديث وانتبه لعملك..

قال المراكبي:

- أجل، أجل، لكن هناك مثلا يقول:

"القط ربما ينظر إلى ملك" وإنني هكذا انظر إلى المستر "جون" ..

كانوا الآن في النهر، وعلى ضفتيه أشجار وأعشاب سامقة، والطيور تحلق هنا وهناك فوق الماء،لا يوجد أثر لرجل!

قال المراكبي:

- يا مستر "رتشارد" لجي فكرة أن "جون" العائش في المستنقع يكمن في هذه الجزيرة وهو يكره كل رجال السير "دانييل"، سأصحبكما إلى الأرض فوق الممر، فهو رجل خطير..

قال "رتشارد":

- نعم، افعل..

قال المراكبي:

- الآن اسحب سهما وضعه في القوس وصوبه نحوي، وانظر نحوي بشراسة فإن رآني "جون" العائش في المستنقع فسأقول إنك أجبرتني على عبور النهر..

قال "رتشارد":

- لكن هذه أرض السير "دانييل"، فهل يجرؤ هؤلاء على قتل الناس في أرضه..؟

أجابه المراكبي:

- إن نهاية السير "دانييل" وشيكة..

قطعوا مسافة طويلة عبر النهار، ثم استداروا حول جزيرة وانحدروا في النهر إلى الضفة الأخرى، هنا توقف المراكبي، وقال:

- عليكما أن تذهبا إلى الأرض بين هذه الأشجار..

قال "رتشارد":

- لكن لا يوجد ممر هناك، بل مجرد ماء وبلل وطين وأرض منخفضة..

- يا مستر "شيلتون" إنني لا أجرؤ على أن آخذكما إلى أبعد من هنا، فلا أمان، فـ"جون" يراقبني وهو يصوب سهامه ويقتل كل العابرين من رجال السير "دانييل" إنني أعرفك منذ كنت طفلاً، كما أن هذا المستر "جون" لا يتحمل الجراح والقتال، من أجل ذلك صحبتكما، لكنني لا أقدر على المزيد.

وبينما يدور الحديث سمعوا صيحة من الجزيرة..

وصاح المراكبي:

- يا إلهي! إنه لا يفارق الجزيرة العليا! سدد السهم نحوي يا "ريتشارد"، لقد حاولت إنقاذ حياتكما وعليك أن تنقذني..!

مضى القارب إلى بعض الأعشاب الطويلة هنا جرى "جون ماتشام" على امتداد حافة القارب، وقفز إلى الأرض. بدأ "رتشارد" يقود الجواد إلى خارج القارب، كان الجواد مرعوباً فقاوم "رتشارد" ولم يتزحزح..

قال "رتشارد":

- لا أستطيع أن أهبط هنا..

وفي هذه اللحظة ظهر رجل طويل على الجزيرة وفي يده قوس، صاح:

- من هناك..؟

قال "رتشارد":

- أنه أنا المستر "شيلتون"..
- قف يا "رتشارد شيلتون"!

لكن رتشارد لم يتحرك..

فصاح به الرجل:

- إذن فلن تركب الجواد، اذهب على قدميك..!

وسدد سهماً إلى الجواد. ناضل الجواد الألم والفزع..

انطلق القارب قدما تجاه الضفة..وحين أصبح على مسافة ياردة منها لمست يد "رتشارد" عصا.. لقد ترك المستر "جون" غصن الشجرة الذي تعلق به ليرشده إلى مكانه، ها هو المراكبي قد عاد بقاربه وصار الآن في وسط النهر ورجل الجزيرة يصيح فيه أن يسرع بإحضار القارب إلى الجزيرة..

قال "رتشارد":

- هيا يا "جون"، علينا أن نجري بأقصى سرعة لنخرج من هنا قبل أن يلمحوا القارب..

وراح يجري بين الأشجار، قافزا من مكان إلى آخر، ثم بدأت الأرض في الارتفاع إلى أن انتهيا إلى أرض **المراغي**..

هنا ألقى المستر "جون" بنفسه أرضاً.. **قائلاً:**

- دعني يا "رتشارد" فلا أستطيع المضي إلى أبعد من ذلك..

- أتركك..؟ كلا..! لقد أنقذت حياتي وكان يمكن أن تلقي حتفك.. كدت أجذبك معي في الماء..

- حسن، فلو فعلت لنجونا معاً، لأنني أستطيع السباحة..

صاح "رتشارد":

- تستطيع السباحة!

"رتشارد" لا يجيد السباحة وها هو يعجب بزميله الذي يستطيع..

- حسنا يا "رتشارد"، إننا صديقان الآن..

قال "رتشارد":

- لم نكن عدوين مطلقاً، إنك صبي شجاع برغم أنك تشبه الفتاة من نواح كثيرة، ولم يسبق لي أن التقيت بمن يماثلك، دعنا نمضي في طريقنا فليس الأوان أوان الكلام..

قال "ماتشام":

- إن قدمي تؤلمني..

- آه لقد نسيت قدمك، حسن، علينا أن تسير على مهل، أتمنى لو عرفت أين نحن، لقد ضللت عن الممر، ربما هذا أفضل، فلو كانوا يراقبون النهر فسيراقبون الممر أيضاً، آه لو أن السير "دانييل" موجود معنا وبصحبته أربعون رجلاً..! إذن لطرد أولئك الناس كما تفعل الريح بأوراق الشجر، هيا يا مستر "جون"، استند إلى كتفي، لا..! فلست طويلاً مثلي، كم تبلغ من العمر؟

- اثنا عشر عاماً..؟

أجاب المستر "جون":

- لا بل في السادسة عشرة..

- إذن أنت بطئ النمو. هيا خذ يدي، سنسير على مهل، لا تخف، إنني مدين لك بحياتي، وأنا أسدد دائماً ديوني..

وراحا يصعدان التل..

قال "رتشارد":

- علينا أن نصل إلى الطريق، لكم ترتعش يدك!
- إنني أخجل أن أكون بهذا الضعف، أصدق ذلك المراكبي حين ظنك فتاة..!

صاح المستر "جون":

- كلا! مطلقاً..

قال "رتشارد":

- لقد فعل وأقسم على ذلك! إنني لا اندهش فإنك قريب الشبه بالفتيات عن الأولاد، إنك صبي غريب الشكل، لكنك تكون فتاة رائعة..!
- حسناً، إنك تعرف إنني لست بنتا..
- كنت أمزح معك، من منا سيصبح فارساً قبل الآخر؟

أنه بالطبع السير "رتشارد شيلتون".. ما أروع وقع الاسم على الأذن..! وكذلك السير "جون ماتشام"..

- من فضلك انتظر ريثما أشرب.. أوه يا "رتشارد" ليتني أجد طعاماً..!

سأله "رتشارد":

- ولماذا لم تتناول الطعام في **كيتلي** أيها المغفل؟؟
- لا، لن أكل هناك. لم تكن بي رغبة في ذلك ولدي أسبابي الخاصة..
- إذن .. اجلس وإليك هذا الخبز واللحم، تناول طعامك إلى أن أقوم بجولة استطلاعية..

جلس المستر "جون" يأكل.. بينما أنطلق "رتشارد" إلى مهمته.. على مسافة يسيرة منهما واد صغير به مجرى مائي وخلفه أشجار، مضى "رتشارد" حذراً عدواً من شجرة إلى أخرى، فجأة مر به غزال، بدأ هذا الجزء من الغابة بالتأكيد مهجوراً..

صعد "رتشارد" شجرة عالية وهو يفكر:

- لو أن هناك أي إنسان في الغابة لصوب سهمه إلى الغزال!

من أعلى الشجرة استطاع "رتشارد" أن يرى السهل الأبيض بعيداً، وأمامه رأى النهر والقارب في المرساة. اختطف نظرة سريعة قبل أن يهبط من الشجرة فشاهد من يتحرك في وسط المستنقع. كان فريق من الرجال يعبرون المستنقع، هبط من الشجرة عائداً إلى صديقه بسرعة..

- 5 -

الخارجون على القانون

ها هو المستر "جون" قد استراح، أسرع الصبيان يقطعان ما تبقى من الغابة، عبرا الطريق وبدأ في تسلق أرض غابة **تونستال** العالية. فوجئنا بتلاصق الأشجار وتقاربها، ثم أذابهما ينتهيان إلى أرض فضاء..

ما كاد يصلان إلى الأرض الفضاء المكشوفة حتى ألقى "رتشارد" نفسه على وجهه أرضاً وبدأ يزحف إلى الخلف بطيئاً، لم يدر المستر "جون" السبب، لكنه فعل المثل. حين وصلا إلى مخبأ آمن خلف شجرة ضخمة سأل "جون" "رتشارد" عما حدث فأشار "رتشارد" بأصبعه، على الجانب القصي من المكان شجرة عالية وعلى ارتفاع نحو خمسين قدماً من الأرض رجل توارى في الشجرة مستطلعاً ما حوله في جميع الجهات سطعت الشمس على شعره فظلل عينيه بيده..

قال "رتشارد":

- فلنذهب إلى الجانب الأيسر فلا يرانا..

بعد عشر دقائق انتهيا إلى ممر.

قال "رتشارد":

- أنا لا ؟أعرف هذا الجزء من الغابة، إلى أين يقودنا هذا الممر..؟
- فلنذهب خلاله ونرى..

وبعد ياردات وصلا إلى قمة تل صغير،خلف التل، شاهد منزلين أو ثلاثة بلا أسقف ومدخنة طويلة بين حطام مبنى ضخم.

وبينما هما يتقدمان في سيرهما مرا بالأشجار والأزهار، كان يعبران خلال بستان قديم، راحا يسيران فانتهيا إلى حطام وبقايا منزل..

كان ذات يوم منزلاً بديعاً ومتيناً، لكنه الآن مجرد جدارين، كانت الشمس تتخلل النوافذ الخالية، وفي الداخل كان العشب على وشك النمو..

همس "رتشارد":

- أظن أن هذا هو بيت "جريستون"، عاش "سيمون مارمسبي" هنا، كان السير "دانييل" عدوه اللدود، لقد حرق "بينيت هاتش" البيت منذ خمس سنوات.

وفي الأرض الفضاء كانت الريح ساكنة والهواء دافئاً.

فجأة رفع "جون" أصبعه وقال:

- أنصت.!

وتناهي إليهما صوت ينشد:

"انهضوا إذن وتكلموا أيها الخارجون على القانون .. يا أيها الطيبون، أنني أهبكم السلام .. لكن خبروني، ماذا تصنعون هنا،يا رجالي.. بين أشجار الغابة..

فأجابه "جاملن" يقول:

دون أن يخفض البصر

- أوه..! لابد أنهم يمشون بين الأشجار .. لأنهم لا يقدرون على السير في البلدة..

ساد الصمت، ظل الولدان يتبادلان النظرات، كان المنشد في مكان على الجانب الآخر من الحطام، تسلق المستر "جون" بحذر إلى قطعة خشبية كبيرة وأطل من مكمنه على الجانب الآخر كانت هناك مشتعلة ووعاء فوقها يغلي. قرب الوعاء رجل طويل حمر الوجه، هو المنشد، بعد مسافة يسيرة جل آخر يرقد نائماً، إلى جواره قوس وبعض السهام وجزء من جسد غزال..

تذوق الرجل الطعام في الوعاء ثم عاود الغناء .. تذوق الطعام من جديد ولما تأكد من نضجه نادى ثلاث مرات متتابعة فصحا الرجل الراقد وراح ينظر حوله، وقال:

- أهو العشاء؟
- أجل.
- عشاء ردئ، فلا خبز، ولا شراب.

قال الآخر:

- إنك تبدد وقتك في التفكير في الطعام والشراب يا أيها الخارج على القانون، لكن وقت الرخاء قادم..
- لقد طال انتظاري له، كنت ولازلت جندياً، وصياداً، وخارجاً على القانون في الغابة قبل هذا وقتلت غزال الملك، فما الفائدة؟ لا شيء، لم يعطني "جون العادل" أكثر من الآخرين، آه، ها هو قادم..

بدأ الرجال يتتابعون مقبلين نحو النار، كل واحد يحمل سكيناً وطبقاً يقطع اللحم من الوعاء ويجلس على العشب ليأكل.

بعضهم ارتدى الثياب القديمة الخشنة كالعاملين الزراعيين، ارتدى معظمهم الملابس الخضراء..

ثم انطلقت صيحة من بين الأشجار وأقبل ستة رجال يحملون برميلاً، يتقدمهم رجل طويل يبدو أنه قائدهم..

صاح بهم القائد:

- يا رجالي، كنتم تنشدون بغير شراب يروي ظمأكم، الآن جلبت لكم نبيذاَ، لكن أسرعوا فأمامكم مهمة عليكم أن تفرغوا منها، لقد وصلت جماعة من رجال السير "دانييل" عبر النهر عليهم أن يتلقوا بعض سهامنا، إننا خمسون

رجلاً هنا، وكل رجل قد وقع عليه ظلم من السير "دانييل"، فهل يجلس السير "دانييل" سعيداً في منزله..؟هل ندعه ينهب محاصيلنا..؟هل يتمتع بما سلبه منا..؟ إنني أقول لا .. إن رجاله لكي يصلوا إلى القلعة عليهم أن يعبروا الغابة ومعهم السير "دانييل"، ربما أمكننا أن نظفر به هناك. إن وصل منزله سنحتل المنزل وسيكون سقوطه شنيعاً! سنقيم احتفالات عظيمة في اليوم الذي تنهار فيه القلعة..

قال أحد الخارجين على القانون:

- مرحي يا مستر "أليس داكوبرت"، إنك تتحرق شوقاً إلى القتال لأن لك أراض تم اغتصابها، لكنني، أخوك الفقير أكثر منك رغبة في النصر، ولقد وعدتموني باحتفالات كبيرة عظيمة، لكن هناك مصاعب كثيرة وصعوبات تنهض لتعوق تحققها، وفي بعض الأحيان لا أحصل على شيء في النهاية، وما الذي تصنعه طيلة الوقت؟ إننا نصنع السهام السوداء ونكتب الأشعار ونشرب الماء البارد.

قال "أليس":

- أنك لا تفكر إلا في الطعام والشراب، لقد انتزعنا عشرين جنيها من "آبيليارد" وسبعة من رسول الليلة الماضية ومنذ أيام قلائل اغتصبنا خمسين جنيها من تاجر.

خطا رجل إلى الأمام قائلاً:

- أخذت هذا من رجل يركب جواداً متجهاً الغابة المقدسة اليوم..

تناول "أليس داكوبرت" كيساً من الرجل وقال:

- مائة من الشلنات، كان يخفي الكثير في ملابسه، إنك مغفل يا "جون كوكو" فقد خسرت أكثر مما حصلت عليه..

أنهى الرجال طعامهم فرقد بعضهم لينام بينما الآخرون في الحديث معاً، وشرع واحد ينشد:

"لا يوجد قانون في الغابة الخضراء..ولا ضرورة للحم..فما أشهى لحم الغزال في طعامنا.. في الصيف حين يحلو كل شيء..ويجيء الشتاء مرة أخرى بالريح والمطر..ويصبح الجليد فوق الحقول صلباً..عودوا إلى الديار وتدثروا بالصوف..وإلى جوار النار ناموا"...

***

كان "رتشارد" و"جون" ينصتان، لم يجرؤ أحدهما على التحرك.

فجأة انطلق سهم مخترقاً الفضاء واصطدام بالجدار، أطلقه الرجل فوق الشجرة تحذيراً لهم. قفزوا جميعاً بالأقواس والسيوف، رفع "أليس" يده وجهه شاحب وعيناه تبرقان، **قال:**

- أنكم تعرفون مواقعكم يا رجال فلا يفلت منكم أحد، إنني سأجزل لكم العطاء من أجل ثلاث أشخاص أصابهم اللعين السير "دانييل" ورجاله ببالغ الضرر.. "هاري شيلتون" الذي قتلوه..وسيمون "مارميسبي" المقتول.. و"أليس داكويرث" الذي نهبوا ممتلكاته..

هنا أقبل رجل يعدو بين الأغصان يقول:

- إنهم سبعة فقط ليس بينهم السير دانييل..

في لحظة اختفى الجميع، لم يتركوا ورائهم سوى ما تبقى من لحم الغزال ونار خمد أوراها!

- 6 -
هجوم في الغابة

رقد الصبيان في هدوء إلى أن ذهب الجميع، ثم نهضا، وخرج المستر "جون" من الحطام، وتبعه "رتشارد شيلتون" يحمل قوسه على ذراعه..

قال المستر "جون":

- الآن، فلنذهب إلى الغابة المقدسة..

قال "رتشارد":

- إلى الغابة المقدسة؟ أنذهب إلى هناك وهؤلاء الناس الطيبون في خطر أن يقتلهم الخارجون على القانون..؟لا، لست أنا ...

سأله المستر "جون":

- هل ستغادرني..؟

أجاب "رتشارد":

- أجل، أنه واجبي أن أذهب واحذر هؤلاء الناس، إن لم أصل في الموعد المحدد لذلك سأذهب لأموت معهم. هل تجبرني على تركهم يموتون وهم أهلي؟

قال "جون":

- "رتشارد"، ألم تقسم أن تأخذني وتوصلني بسلام إلى الغابة المقدسة؟ أنك الآن تتخلى عني..!

قال "رتشارد":

- هلم بنا يا "جون"، فلنذهب، ونحذرهم وتعاونهم، وبعدها نواصل رحلتنا إلى الغابة المقدسة وابر بقسمي..

قال المستر "جون":

- هؤلاء الرجال الذين ستعاونهم هم أنفسهم الذين كانوا في مطاردتي..

- وماذا أقدر أنه أفعل يا "جون"؟ ماذا تريدني أن أفعل؟ إنك لست في خطر، وهؤلاء الناس يواجهون الموت..

قال "جون" وهو ينظر في عيني صاحبه:

- يا "رتشارد شيلتون" أنت تريد اللحاق بالسير "دانييل"، هل تعلم أن والدك هو السير "هاري شيلتون"؟ ولقد سمعت ما قاله ذلك الرجل "إيليس"، إن السير "دانييل" قتل أباك..

قال "رتشارد":

- أوه، إنني لا أصدق ما يقوله اللصوص..

- لا.. لقد سمعت ذلك من قبل، كل الناس تعرفه، لقد قتل السير "دانييل" أباك في منزله، وأنت ولده، ترغب في الذهاب للقتال من أجل القاتل..!

قال "رتشارد":

- لكن يا "جون"، ذلك الرجل اعتنى بي كطفل، ولقد صرت ولعبت بين رجاله ولا أستطيع أن أتركهم في ساعة الخطر.

قال "جون":

- لكن والدك! ووعدك لي، قسمك بأغلظ الإيمان..

قال "رتشارد":

- إن والدي كان سيريدني أن أذهب، ولو أن السير "دانييل" قد قتله، فسأقتله أن ذات يوم، لكنني لن أدعه هو ورجاله في خطر، فهل تطلق سراحي وتجعلني حراً من قسمي..

قال "جون":

- أبداً..!

قفاً وجه لوجه، يمسك "جون" سكيناً ويمسك رتشارد قوسه..فجأة قفز "رتشارد" مختطفا السكين من "جون"، ثم ألقاه أرضاً ووقف فوقه جاهزاً لطعنه، لكن "جون" ظل في مكانه طريحاً ولم يبد ميلاً للقتال. هنا استدار "رتشارد" وأطلق ساقيه للريح! نهض "جون" وبدا يجري خلفه.

صاح "رتشارد":

- ماذا تريد..؟ لماذا تلاحقني.؟

- سأتبعك لو أردت أن أفعل. هذه الغابة مجانية..

رفع "رتشارد" قوسه وصاح:

- ارجع..!

- أوه، إنك صبي شجاع! اقتلني..!

خفض "رتشارد" قوسه قائلاً:

- انظر، لقد تسببت في ألحاق ما يكفي من الأذى لي، فاذهب! وواصل رحلتك أم هل تحب أن أجبرك على الذهاب؟

قال "جون":

- حسن ، إنك الأقوى ، فافعل ما تحب، سأتبعك إلا إذا أجبرتني على التوقف، لم يشأ "رتشارد" أن يضرب أحداً لا يستطيع الدفاع عن نفسه، ومن ثم لم يعرف كيفية الخلاص من رفيقه..

قال:

- لو تبعتني ستسقط في قبضة أعدائك..

- لا أبالي، لو مت أنت يا "رتشارد" سأموت أيضاً، إنني أفضل الذهاب معك إلى السجن عن أن أكون حراً بدونك..

قال "رتشارد":

- حسن لا أستطيع أن أتوقف هنا لأتحدث، فاتبعني لو أردت..

وهكذا اندفع "رتشارد" في طريقه إلى داخل الغابة.

لم يكادا يقطعان ياردات قليلة حين لمس "جون" ذراع "رتشارد" وأشار..

كان ثمة وادي صغير شاهد فيه "رتشارد" عشرة أو اثنى عشر رجلاً يرتدون المعاطف الخضراء وهم يتسلقون الجانب الآخر يقودهم "إبليس داكويرث"، الواحد تلو الأخر إلى أن وصلوا قمة التل..

ثم هبطوا إلى الجانب الآخر..

قال "رتشارد":

- مرحي! إذن فأنت نعم الصديق لي؟ لقد حسبتك في جانب العدو!..

بدأ "جون" يبكي..

- ماذا..؟ أتبكي من مجرد كلمة؟

- لقد آذيتني! لقد طرحتني أرضاً وها أنت الآن تسمعني قارص الكلام..

جرى "رتشارد" وخلفه "جون" إلى أن وصلا إلى بعض الأغصان فارتمى "رتشارد" على الأرض وبعد دقائق كان "جون" إلى جواره يرقدان في صمت، كان من تحتها الوادي، وفي الأسفل ممن يردي من **تونستال** إلى القصر..

- في بعض الأماكن يوجد العشب إلى جانب الممر، وفي الأماكن الأخرى الأشجار، وربما اختبأ العدو خلف هذه الأشجار.

وأدنى الممر كانت رؤية "سيلدن" ورجاله ممكنة وهم يركبون خيولهم..

همس "رتشارد":

- أنظر، أنهم متقدمون في الغابة، إنك ترى ذلك المكان المكشوف أمامنا وفيه ثلاثون أو أربعون شجرة مثل الجزيرة، حين يأتون إلى هنا سأحذرهم، لكنني أشعر بالخوف.

ظل **سيلدن** ورجاله يصعدون الممر ويقتربون بين دقيقة وأخرى ثم توقفوا، لقد سمعوا شيئاً عبر السهول، كان صوت البنادق في غابة **نوستال**، إذن فالقتال انتقل إلى الشرق، معنى ذلك أن السير "دانييل" انهزم، بدأوا التحرك للأمام مرة أخرى ووصلوا إلى مكان مكشوف حيث تنحدر الأشجار من الغابة في شكل لسان متجهه إلى الطريق، كانوا قرب هذه البقعة حين انطلق سهم مخترقاً الهواء وقع أحد الرجال ذراعيه ثم سقط عن جواده..

استطاع الصبيان سماع أصوات الرجال يصرخون ، ثم رأوا الخيل تثب في هذا الطريق بينما يحاول راكبوها أن يسيطروا عليها..

انطلق سهم آخر وسقط فارس آخر، وفقد رجل كان يترجل من جواده السيطرة عليه فانطلق الجواد هارباً يجره من قدميه على امتداد الممر.

بقى أربعة فرسان على جيادهم، تبعثروا واحد انطلق وهو يصرخ من الرعب نحو النهر، والآخرون صعدوا الطريق من **تونستال**، من كل غصن شجرة انطلق سهم، وسرعان ما سقط جواد، لكن راكبه استطاع أن يعدو إلى أن أصابه سهم فأرداه، سقط رجل آخر ثم جواده.. لم يبق سوى رجل وقف في الطريق إلى جوار جواده، المفتول.. كان على مسافة ما يقرب من خمسمائة ياردة من مخبأ الصبين، تعرف "رتشارد" على "سيلدن" وكان يسحب قوسه من ظهره، انطلقت ضحكة مجلجلة، كان الأعداء يضحكون من الرجل الوحيد الذي سيقاتلهم جميعاً، انطلق سهم فوق رأس "سيلدن" فتراجع عدواً إلى مسافة يسيرة، وإذا بسهم ثان ينطلق أسفل قدميه فانطلق "سيلدن" إلى الأمام، وانطلق سهم ثالث من أمام وجهه، وإذا بالضحكات تتعالى أكثر وأكثر من بين الأغصان..

صاح "رتشارد":

- أنهم يلاعبونه وحسب..

فهم "سيلدن" ما يدور فأطلق صيحة غضب ورمى بسهم صوب الأشجار وكانت صيحة، فقد أصاب شخصاً ما.. ثم حول "سيلدن" مساره إلى المكان الذي اختبأ فيه الصبيان، ثم بدأ رجال الغابة في التصويب بسرعة، لكن كان ضوء الشمس في عيونهم ومن هنا فقد اخطئوا التصويب، وقفز "سيلدن" من جانب إلى آخر كما لو أنه سيهرب، تأهب "رتشارد" بقوسه. كان "سيلدن" على بعد خمسين ياردة منهم حين ضربه سهم فوقع. نهض مرة أخرى وراح يعدو كالأعمى..

نهض "رتشارد" وصاح:

- هنا هذا الطريق! هنا النجدة، واصل الجري!

في تلك اللحظة! انطلق سهم وأصاب "سيلدن" في كتفه فسقط على الأرض..

صاح المستر "جون":

- آوه، ياللرجل المسكين!

نهض "رتشارد" فوق التل، وكان يمكن لأي شخص أن يصوبه نحوه، لكن فجأة انطلق صوت من الغابة.. **كان صوت "إيلبس داكويرث":**

- توقفوا، لا تطلقوا السهام، خذوه حياً..! إنه "شيلتون" الصغير، ابن "هاري"..

استدار الصبيان وانطلقا يجريان بين الأشجار على قمة التل..!

***

- 7 -
مطـــاردة

كان هذا هو الوقت المناسب لأن يجريا، فرجال الغابة كانوا يصعدون التل، لقد كان يجريان بين الأشجار، ثم وصلا إلى الأرض المكشوفة لكن لم يعبراها، لزم "رتشارد" اليسار وتبعه المستر "جون"، بينما انطلق مطاردوهم إلى اليمين وإلى **تونستال**..

بعد برهة توقف الصبيان ليلتقطا أنفاسهما، لم يكن ثمة صوت لمطارديهم.

قال "رتشارد":

- هلم بنا مرة ثانية!

ثم شرعا يتحريان أسفل التل، وبعد ثلاث دقائق كان يجوبان خلال الأغصان الكثيفة، في الجانب الآخر انتهى بهما السير إلى الساحة المكشوفة..

صاح "صوت":

- توقفا..!

وقف رجل ضخم يرتدي الثوب الأخضر بين شجرتين أمامهما بمسافة خمسين قدماً. سحب سهما ووجهه إليهما.

توقف المستر "جون" لكن "رتشارد" انطلق صوب الرجل وقد سحب سكينه، لم يطلق الرجل سهمه في الحال بل توقف، قفز "رتشارد" وصفعه على عنقه فأطاح به إلى الخلف على العشب، طار قوس الرجل إلى ناحية وسهمه إلى الناحية الأخرى، وبرقت السكين وهبطت مرتين، نهض "رتشارد" على قدميه بينما رقد الرجل والسكين في صدره..

قال "رتشارد":

- إلى الأمام..!

وانطلق من جديد إلى الأمام ولاحقه المستر "جون" ولم يقدرا على الابتعاد كثيراً فقد أصبح تنفسهما ثقيلاً كما انجرحت قدم المستر "جون". خرجا من الغابة وإذا بهما أمام الطريق من **ريزنجهام** إلى **شورى**..

فجأة سمعا صوتا وراح يعلو ويعلو، كان صوت معركة هائلة.. ثم أصبحت واضحة، كان صوت جياد كثيرة، كوكبة كبيرة من الفرسان يندفعون حول ذلك الجانب وهم في جلبة وفوضى، بعضهم جرحى وثمة جياد بلا فرسان، كانوا هاربين من معركة كبيرة..

ثمة رجل يحمل درعاً جاء راكباً جواده بامتداد الطريق، يتعقبه بعض العربات التي تشدها الخيول والسائقون يلهبون ظهور الخيل بالسياط لتسرع .. تقدم الفارس المدرع، ثم بدأ يوجه طعناته للسائقين فقفز بعضهم من أماكنهم وفروا إلى الغابة، تعاظمت الضجة القادمة من بعيد، صوت العربات والجياد وصيحات الرجال.. كان من الواضح أن بقايا الجيش تتدفق أسفل الطريق..

وقف "رتشارد" لا يريم .. لقد اعتزم تتبع الطريق إلى الغابة المقدسة، لكن الآن عليه أن يغير خطته. علم أن اللورد "رازينجهام" كسب المعركة وأن جانب السير "دانييل" قد انهزم. هل انضم السير "دانييل" إلى الجانب الآخر أم هل جنح إلى الفرار؟

قال "رتشارد":

- تعال..

ارتد والمستر "جون" إلى الغابة. كان المستر "جون" يغالب آلامه. واصلاً السير في الغابة وقد تأخر الوقت، والشمس تغرب في السهل خلف **كيتلي**، وكانت قمم الأشجار ذهبية..

قال "رتشارد":

- أوه لو نجد شيئاً تأكله..

جلس المستر "جون" وبدأ يبكي...

قال "رتشارد" بغضب:

- يمكنك أن تبكي لأجل العشاء لكن لا تستطيع البكاء من أجل أولئك السبعة الذين تسببت في قتلهم، أنني لا أسامحك أبداً..

قال المستر "جون":

وماذا عن الرجل الذي قتلته ولم يدافع عن نفسه؟

قال "رتشارد":

- لقد قتلته دفاعاً عن النفس وكان يمكنه قتلي..

- إنك لم تقتله لذلك، إن كان ذلك الرجل قوياً لكنت فررت منه، إنك لم تهتم بوفاة أبيك، وحين تطلب إليك المسكينة أن تساعدها تلقيها أرضاً..

كان رتشارد في غاية الغضب حين لاحظ كلمة (المسكينة)..

قال "رتشارد":

- ولو أن هناك رجلين أحدهما قوي فيطرح القوي الضعيف أرضاً.. أنت تستحق علقة يا مستر "جون" لحماقتك ولعدم اعترافك بجميلي، وستأخذ العلقة..

نزع "رتشارد" غضباً وقال:

- وسيكون هذا عشاءك!

كف المستر "جون" عن البكاء، شحب وجهه ولكنه نظر إلى "رتشارد" بثبات، خطا "رتشارد" إلى الأمام، ثم إذا به يرى عيني رفيقه الواسعتين ووجهه النحيل المرهق فتبددت شجاعته..

قال:

- قل إنك كنت على خطأ..

قال المستر "جون":

- قل، إنني على حق، تعال يا قاسي القلب! إنني مرهق، ولا أدافع عن نفسي، تعالى واضربني..

سقطت العصا أرضاً..

قال "رتشارد":

- اللعنة عليك، عليك بأن تصون لسانك، لكنني لن أضربك.. ولن أسامحك مطلقاً..! إنك عدو سيدي. ولقد سمحت لك بركوب جوادي ويتناول طعامي، لقد قدمت لك كل شيء، اصنع ما شئت ولن يعاقبك أحد، قد تقابل رجلاً بحربة، ولأنك تقول أنك ضعيف فإنه سيسمح لك بطعنه بالحربة.. إنك تقول بأنك ضعيف! كلمات حمقاء!

قال المستر "جون":

- وأنت لم تضربني..

- كلا، هيا بنا نذهب، سأعلمك، إنك سيء التربية، لكن فيك شيئاً طيباً، لقد أنقذت حياتي في النهر ولست جحوداً مثلك. تعالى، فلنذهب، علينا أن تسرع بالذهاب لو أردنا أن نصل الليلة إلى الغابة المقدسة..

- **قال المستر جون:**

- أشكرك، وإنني أؤثر أن أذهب وحدي فليختر كل منا طريقه..

قال "رتشارد":

- كما تشاء..

استدار كل منهما وبدا الاثنان السير منفصلين:

- لم يكن "رتشارد" قد قطع عشر ياردات حين سمع اسمه و"جون" يعدو خلفه **وهو يصيح:**

- "رتشارد"، لا يجب أن نفترق بدون أن تكون أصدقاء.. إليك يدي وأشكرك لكل ما قدمته لي ...

قال "رتشارد":

- حسن أيها الولد أتمنى لك حظاً سعيداً لكن حذار من الثرثرة..

وافترقا من جديد. ثم جرى "رتشارد" خلف "جون" قائلاً:

- هنا، إليك قوس، لا يمكنك أن تذهب بلا سلاح..

قال "جون":

- قوسك.. إنني لا أعرف كيف استعمله..

كان الليل قد ستر الكون بغلالته السوداء..

قال "رتشارد":

- سأصاحبك بعض الطريق فالليلة ظلماء وقد تضل الطريق.

وبدأ يسير إلى الأمام، وفي نهاية الساعة وصلا إلى مكان فسيح مكشوف يغمره ضوء النجوم.. هنا توقفا وتبادلا نظرة..

قال "رتشارد":

- أنت مرهق..

قال المستر "جون":

- بل في غاية الإرهاق لدرجة إنني يمكن أن أرقد وأموت..

قال "رتشارد":

- إنني أسمع صوت نهر وأنا عطشان..

انحدرا إلى الماء وشربا، ثم رقدا على الرمال وناما.. وكانت النجوم ترعاهما في سكون وأمان..

***

- 8 -
المـــجـــذوم..

صحا "رتشارد" و"جون" في ضوء الصباح الباهت وبينما كانا بين النوم واليقظة سمعا صوت جرس.

قال "رتشارد":

- جرس .. أنحن قريبان للغاية من الغابة المقدسة؟

قال "جون":

- إنه شخص يسير، والجرس يرن وهو يتحرك..

رن الجرس أسرع، ثم ساد سكون، ثم رن مرة أخرى.

قال "جون":

- إنه الآن قريباً تماماً..

شاهدا شخصاً قادماً على الممر يرتدي ثوباً أبيض.. وفي كل خطوة يخطوها يرن جرس.. لم يريا له وجهاً، بل فوق رأسه كسوة بيضاء (بثقبين في موقع العينين) وكلما خطا المخلوق خطوة رن الجرس، وفي يده عصا يتحسس بها طريقه.. واقترب الرعب من الصبيين..

قال "جون":

- إنه مجذوم ولمسته مميتة، هيا نعدو..!

قال ريتشارد:

- كلا، كلا، فلنجلس هنا، سيمر ولن يسمعنا.

اقترب المجذوم من مكان الصبيين فأدار وجهه نحوهما..

قال "جون":

- إنه يرانا..

قال "رتشارد":

- لا، لا، أنه يسمع وحسب ولا يستطيع أن يرى، فهو أعمى.

توقف المجذوم هناك دقائق، ولم يستطيعا أن يقولا أن كان ينظر أو يستمع، ثم استدار وبدأ كما لو أنه ينظر إليهما، ها هو "رتشارد" بوجه شاحب يكاد يتجمد من الرعب، أغمض عينيه، ثم واصل المجذوم سيره واختفى في حافة الغابة.

قال "جون":

- لقد رآنا، أنا واثق من ذلك وينوي شراً..

قال "رتشارد":

- كلا، لقد سمعنا وحسب وهو خائف..

قال "جون":

- "رتشارد"، عزيزي "رتشارد"، لقد رآنا الرجل حين يتصنت فإنه لا يتصرف على هذا النحو، إنه ينظر ويرى، ولا يسمع.. اسمعني يا صديقي.. لقد توقف الجرس.

قال "رتشارد":

- أوه، إنني لا يعجبني ذلك، ماذا يعني هذا؟ فلنذهب.
- لقد اتجه شرقاً، فلنذهب نحن إلى الغرب..

قال "رتشارد":

- لا تكن خائفاً إلى هذا الحد، إننا متجهان إلى الغابة المقدسة وسأخذك إلى هناك، إن الغابة المقدسة إلى الشمال عبر النهر إلى الجانب الآخر، ووصلا إلى حافة الغابة..

ثمة فتحات كثيرة في الأرض، والأشجار هنا وهناك ومن الصعب معرفة الطريق، وكان الصبيان قد أرهقهما الجري بالأمس، وصلا إلى قمة التل الصغير وشاهدا آثار أقدام المجذوم أمامهما. والجرس صامت وكان المجذوم يسير بقدم ثابتة كالشخص الذي يرى كل شيء.

اختبأ الصبيان خلف أحد الأغصان ورقداً في رعب.

قال "جون":

- إنه يتبعنا، ألا ترى أنه يمسك الجرس فلا يرن..؟
- ماذا يريد؟ من الذي سمع عن مجذوم يتبع الناس؟
- إن الجرس يحذر الناس منه فيبتعدون..!

قال "رتشارد":

- فلتعاوننا السماء..

قال "جون":

- هل نرقد هنا ولا نفعل شيئاً، فلنرجع إلى المنطقة المكشوفة، لدينا فرصة أفضل، فلن يستطيع أن يهاجمنا فجأة.
- جهز قوسك وصوب إليه.. ألن تكون رجلاً؟
- ماذا..؟ أتريدني أن أقتل المجذوم..؟ لا لن أقاتل الأرواح أو المجذومين، فلتحفظنا السموات..!

قال "جون":

- وها هي شجاعة رجل، يا له من مسكين ذلك الإنسان!
- وما دمت لن تفعل شيئاً فدعنا نرقد هنا..!

رن الجرس..

فهمس "جون":

- أه كان هذا بالصدفة ، لقد فقد زمامه وها هو قريباً منا..!

لم يجب "رتشارد"..

سرعان ما شاهدا قطعة قماش بيضاء بين الأغصان، ثم أطل عليهما رأس المجذوم، بدا أنه ينظر حوله ثم ارتد إلى الخلف، أما الصبيان فخيل إليهما أن كل الغابة قد امتلأت بالضجيج والأصوات الخفية، واستطاعا سماع صوت ضربات قلبيهما..

فجأة قفز المجذوم فصار قربهما وجرى إليهما فانطلقا يجريان ويصيحان حاصر العدو المفزع "جون" فأصبح سجينه، أصله الصبي صرخة رعب، وقاوم قليلاً، ثم سقط على الأرض

سمع "رتشارد" الصرخة والتفت رأى "جون" ملقياً على الأرض فعادت إليه قوته فتناول قوسه وجهز سهمه، لكن رفع المجذوم يده قائلا :

- توقف "رتشارد"، ألا تتعرف على صديق؟

ونزع كسوة الرأس فإذا به السير "دانييل براكلي"! صاح "رتشارد"!

- سير دانييل!

قال السير "دانييل":

- أكنت تصوب نحوي؟ أنك ربيبي، فمن يكون هذا؟

وأشار إلى "جون" فقال "رتشارد":

- إنني أدعوه المستر "جون ماتشام"، فهل تعرفه؟ إنه يؤكد أنك تعرفه..

فانطلق السير "دانييل" يضحك وقال:

- أوه، أجل، إنني أعرفه، لكنه مغشي عليه ولابد أن هناك سبباً لإغمائه، فهل أخفتك يا "رتشارد".

- حقاً يا سيدي، كنت أفضل أن ألقي الشيطان نفسه، لكن ماذا تفعل في ثوبك هذا؟

فأسود وجه السير دانييل من الغضب وقال:

- ماذا أفعل هنا بثوبي هذا؟ أنه عقلي، لقد اختفيت حرصاً على حياتي في غابة **تونستال** ..لقد انهزمنا، فبمجرد ذهابنا إلى هناك طاردونا..فأين كل رجالي؟ لقد تم القضاء علينا مثل الذياب! لقد نكلوا بنا، ولم أر رجالي منذ المعركة، ثم جئت إلى **شوربي** وتذكرت **السهم الأسود**، وحصلت على ذلك الثوب والجرس وسرت في الممر إلى القلعة، لا يوجد أفضل من هذا الثوب لتضليل المطاردين، إن صوت الجرس سيرعب أشجع الرجال الخارجين على القانون في الغابة. ثم رأيتكما واندهشت من وجودكما معاً.. آه.. أن المسكين يستعيد وعيه، سيساعده النبيذ.

أخرج الفارس قنينة من تحت ثوبه الطويل..

قال "رتشارد":

- كل شيء على ما يرام يا "جون"، ولم يكن هناك مجذوم بل السير "دانييل"، انظر...!

قال الفارس لـ"جون":

- اشرب بعض النبيذ وسيجعلك أفضل، وسأعطيكما معاً وجبة ممتازة ونذهب كلنا في **تونستال**..

واستخرج خبزاً ولحماً ووضعهما على الأعشاب .. **وقال:**

- إنني يا "رتشارد" أكره أن أظل بين أربعة جدران، لكن منذ ركبت جواداً للمرة الأولى لم يحدث لي أن كنت في مثل هذا الخطر، إنني في خطر داهم،

خطر فقدان أرضي، وخطر الخارجين على القانون، لكنني لم أنته بعد، سينجح بعض رجال في العودة إلى الوطن، إن "هاتسن" معه عشرة رجال ومع "سيلدن" ستة.. وسرعان ما تصبح أقوياء مرة أخرى، سأعقد صلحاً مع أعدائي فيصبح كل شيء على ما يرام.

ورفع النبيذ ليشرب.

قال "رتشارد":

- "سيلدن"، إن "سيلدن"..

فأنزل السير "دانييل" الشراب وصاح بصوت مختلف:

- ماذا..؟ "سيلدن"! انطق..! ماذا عن "سيلدن"؟

أخبره "رتشارد" بكل ما يعرف عن "سيلدن"، أنصت السير "دانييل" في صمت، ثم نشب صراع بين الغضب والحزن في وجهه..

قال:

- لقد طردت ذلك المدعو "داكويرث" من بيته وأحرقت البيت، والآن يعود ليهاجمني.. لكن حان الحين يا "داكويرث".. وستعاني يا "داكويرث"..!

وسكت برهة ثم صاح فجأة:

- كلا..!

ثم التفت إلى "جون ماتشام" وقال:

- أقسم لي أنك ستتبعني إلى القلعة مباشرة..
- أنني أقسم على ذلك..

أعاد السير "دانييل" الكسوة إلى وجهه ونهض:

- قذف منظر الرداء بالرعب في أفئدة الصبيين.

قال السير "دانييل":

- انتهيا من الطعام ثم اتبعاني..

وانطلق إلى الغابة.

سرعان ما سمع الصبيان صوت الجرس فنهضا..

قال "رتشارد":

- إذن فإنك ذاهب إلى **تونستال**..

- أجل..

أكلا بسرعة ثم انطلقا على امتداد الممر الطويل إلى الغابة حيث تتسع المساحات الخضراء من الأشجار والعشب وتشدو الطيور بأروع الألحان في مرح وحبور.. بعد ساعتين هبطا من التل وأبصرا أمامهما سقف وجدران القلعة.

قال "جون":

- هنا، نفترق، فلن تراني أبداً..

قال "رتشارد":

- كنا ذاهبين معاً إلى القلعة، فلماذا لن أراك مرة ثانية؟

قال "جون":

- لن ترى إطلاقاً "جون ماتشام".

وفتح ذراعيه متعانقاً وتبادلا قبلة..

قال "جون":

- وإلى الآن فالسير "دانييل" قد حظى بالثروة، لكنها ستكون وبالا عليه، فهو رجل شرير، والرعب يطل من عينيه، والرعب قاس – فلندخل القصر.. لكن فليساعدنا الرب في الخروج سالمين!

***

- 9 -
داخـــل القلـعة

لا تبعد القلعة عن طريق الغابة، كانت مبنى مربعاً بجدران صخرية حمراء وبرج دائري من جميع جوانبه بالداخل ساحة ويحيط بها من الخارج خندق مائي يمكن عبوره بجسر متحرك يتم رفعه أثناء الحرب.

في الساحة شاهد "رتشارد" بعض الجنود يتجهزون للدفاع عن القلعة ويتحدثون عن فرص للفوز، البعض كان يصنع السهام والبعض الآخر يشحذ السيوف غطى وجوههم القنوط..

لقد هرب من رجال السير "دانييل" اثنا عشر رجلاً من المعركة ووصلوا بسلام إلى القلعة باجتياز الغابة، لقد كان بينهم ثلاثة جرحى. كان مجموعة رجال القلعة اثنين وعشرين رجلاً وحسب، لكن كان من المتوقع أن يصل آخرون.

لم يكن مبعث خوف الرجال قلة عددهم، بل أن مرجع خوفهم هو السهم الأسود.

في أوقات كثيرة في المساء والليل وصل إلى بوابة القلعة ما لا يقل عن سبعة جياد بدون ركاب. وصل اثنان من جياد رجال "سيلدن" أما الآخرى فكانت من جياد رجال السيد "دانييل"، أخيراً وقبل الفجر أقبل جندي إلى حافة الخندق، كان مرشوقاً بثلاث سهام ومات وهم يحملونه إلى الداخل بعد أن قال أنه أخر جنود الكوكبة الكبيرة..

حتى بينيت هاتش ذاته كان منزعجاً. قاد "رتشارد" إلى أحد الأركان وسمع منه ما حدث لـ"سيلدن"، وبعدها جاس على صخرة وبكى..

نظر الآخرون إلى "رتشارد" في دهشة ورعب، لكن لم يوجهوا إليه أية أسئلة..

قال "هاتش" أخيراً:

- آه يا "رتشارد"، سنفنى جميعاً.. لقد كان "سيلدن" مثل أخي .. وها هو قد مات.. وسنلحقه قريباً، فالسهم الأسود في كل قلب أسود، "آبيلاد"، "سميث"، "هامفري" قد ماتوا. وهناك يرقد المسكين "توم كارتر" يلفظ أنفاسه ويصرخ في طلب القس..

أنصت "رتشارد" وتناهى إليهم من النافذة القريبة صيحات الألم..

قال "رتشارد":

- أهو راقد هناك..؟

أجاب "هاتش":

- أجل ولا نستطيع حمله إلى أبعد من هنا، في كل خطوة يكمن الموت، ليست جراحة بالتي تزعجه، بل ما فعله من آثام..!

نظر "رتشارد" من النافذة، كانت حجرة صغيرة ومظلة، يبد أنه استطاع رؤية الجندي الجريح راقداً على الفراش.

قال "رتشارد":

- "كارتر" يا صديقي المسكين.. كيف حالك؟

همس إليه المحتضر:

- يا مستر "شيلتون" أضرع إليك أن تحضر قساً.! إنني وشك على الموت ولابد أن أعقد سلامي مع الرب. وثمة ما أعترف به إلى القس..

ثم صاح في ألم بالغ..

في هذه اللحظة أقبل السير "دانييل" خارجاً من باب القاعة الكبيرة.. وفي يده رسالة ..قال:

- أيها الرجال، لقد تلقينا ضربة، فلماذا لا تعترف بذلك؟

لكن علينا أن نتجهز للقتال من جديد وتواصله.. لدى صديق مخلص هو اللورد "ونسلديل" ولقد كتبت إليه رسالة أعده فيها بهدايا عظيمة وأنشد صداقته.. الآن أصعب شيء أن أجد من يحمله الرسالة.. فالغابة تغص بالأعداء. الآن، من منكم سيأخذ الرسالة إلى اللورد "ونسلديل" ويعود بالرد..؟

نهض رجل قائلاً:

أنا..

قال السير "دانييل":

- كلا يا"نك باور"، لست سريعاً بما يكفي..

قال آخر:

- أنا لها..

- لا.. إنك سريع لكنك أحمق ومتهور..

ثم عرض "هاتش" أن يقوم بالمهمة..

صاح السير "دانييل":

- كلا، إنني في حاجة إليك هنا..

أخيراً وقع اختيار السير "دانييل" على رجل فأعطاه الرسالة وقال له:

- الآن يا"ثروجعورتون"، إننا جميعاً تعتمد على سرعتك وذكائك فعد بالرد خلال ثلاثة أسابيع فأقضى على جميع أعدائنا وأطردهم من الغابة وهذه مهمة صعبة، يجب أن تذهب في الليل في سرية الثعلب. كيف ستعبر الخندق؟

- أستطيع أن أسبح. سأكون في أمان فلا تخافوا فاستدار السير "دانييل" عائداً إلى القاعة..

قال "هاتش":

- السير "دانييل" ينطق بالحكمة، فالأحمق سيقع في المشاكل، وهنا الخطر، إنه قائد عظيم، ولقد بث الشجاعة في نفوس رجاله..

أوحى المديح للسير "دانييل" بفكرة لـ"رتشارد".. فقال:

- يا هاتش كيف مات أبي..؟

قال "هاتش":

- لا تسألني عن ذلك، لم يكن بوسعي أن أمنعه.. سل السير "أوليفر أوتس" أو "كارتر" لو أحببت، لكن ليس أنا..

ومضى تاركاً "رتشارد" لأفكاره..

قال "رتشارد" لنفسه:

- لماذا لم يخبرني.. ولما أوصاني بأن اسأل "كارتر"؟

وانطلق إلى الحجرة التي يرقد فيها "كارتر"..

صاح به الجريح:

- هل أحضرت القس؟

- كلا، خبرني أولاً عن أبي، "هاري شيلتون" كيف لقي حتفه؟

تلون وجه الرجل وهتف:

- لا أدري..

قال "رتشارد":

- إذا فستموت بدون اعتراف، إنني هنا وسأمكث معك، لكن لن يحضر القس..

- إذاً أمكث كما تشاء، لكنك لم تحظي بشيء.. وأدار وجهه بعيداً.

قال "رتشارد":

- إنني أعلم يا "كارتر" أنك كنت تنفذ الأوامر وحسب، وعلى الخدم أن يطيعوا سيدهم، لكنني أقسمت أن أعاقب الرجل الذي قتل أبي، وأناشدك العون..

ظل الجريح صامتاً..

قال "رتشارد":

- حسن .. إنني ذاهب لاستدعاء القس بناء على طلبك، لأنني لا أريد أن أؤذيك..

لم ينبس الجريح ببنت شفة، أعجب "رتشارد" بصلابته، وفكر:

- وماذا بعد.. ما جدوى الشجاعة بدون حكمة لو كان بريئاً لتحدث، إن صمته يعطيني الإجابة ومن كل الجوانب تأتيني الإجابة بأن السير "دانييل" ورجاله قتلوا أبي..

توقف "رتشارد" خارج الحجرة، سمع صوت خطوات وأقبل السير "أوليفر أوتس" تجاهه فقال له "رتشارد":

- ثمة رجال في مسيس الحاجة إليك...
- إنني في الطريق إليه، إنه المسكين "كارتر"، أهو مريض للغاية؟
- مريض بعقله وبدنه..

قال السير "أوليفر":

- أجل، كنت توا معه..

فسأله القس بشغف:

- وماذا قال..؟

- لقد استدعاك وحسب..

- آه.. لابد لكل منا أن يعمل خطيئة في حياته ثم تأتي النهاية والموت..

فقال "رتشارد":

- أجل، ويكون رائعاً أن نلقي نهايتنا العادلة..

نكس القس رأسه، لم يقدر على النظر إلى "رتشارد"، وعبر إلى الحجرة في سكون..

فكر "رتشارد":

- إذن فهو أيضاً يعرف.. هو الذي علمني الكثير عن الرب والخير.. كل من يحبونني يعرفون قاتل أبي وبمعاقبتهم على وفاته.. يجب أن أعاقب أصدقائي..!

ذلك الخاطر جعله يتذكر "ماتشام" وتساءل عن مكانه فهو لم يره منذ دخل القلعة..

بعد ما يقرب من الساعة اجتمع الكل للعشاء في القاعة، كانت حجرة طويلة منخفضة السقف بها لوحات معلقة على الجدران تعرض مناظر للصيد.. في الوسط مائدة طويلة مغطاة بالطعام، لم يحضر السير "دانييل" وزوجته، وكذلك السير "أوليفر"، بعد العشاء شاهد "رتشارد" زوجة "بينيت هاتش".. **فصاح:**

- إنني أضرع إليك أن تخبريني بمكان المستر "جون ماتشام"؟ لقد رأيتك تذهبين معه حين وصلنا إلى هنا..

قالت:

- لن تراه مطلقاً..

قال "رتشارد":

- إذن فلأعرف السبب.. لقد جاء هنا طواعية وأنا حاميه.
- إنني أريد أن أعرف أم كان يعامل بحفاوة.. إن هنا أشياء لا أفهمها وهذا يرهقني..

وبينما كان "رتشارد" هناك سقطت يد ثقيلة على كتفه، إنه "بينيت هاتش" الذي أومأ لامرأته بأن تذهب .. وقال:

- يا صديقي "رتشارد" هل جننت..؟ إن لم تترك ما لا يعنيك فإن البحر يكون أكثر أماناً لك عن هنا! لقد سألتني وسألت "كارتر" وأخفت السير "أوليفر" وسيستدعيك السير "دانييل" ويستجوبك، حين يستدعيك السير "دانييل" أعطه إجابات حكيمة، ستكون الأسئلة صعبة للغاية.. ويجب أن تكون حريصاً في الإجابات.

قال "رتشارد":

- إنني أشم رائحة الشر في كل ذلك..

قال "هاتش":

- إن لم تكن حكيماً فسوف تشم رائحة الدم!

وفي تلك اللحظة حضر رسول لاستدعاء "رتشارد" إلى السير "دانييل"..

- 10 -
يـمـين كـــــاذبة!

كان السير "دانييل" في القاعة يسير غاضباً رائعاً غادياً بانتظار "رتشارد"، لم يكن معه سوى السير "أوليفر" الذي جلس بهدوء يتصفح كتاباً..

سأله "رتشارد":

- لقد أرسلت في طلبي يا سير "دانييل"..؟
- أجل.. لقد أرسلت أستدعيك، ما هذا الذي أسمعه؟

هل كنت أسيء إليك يا ربيبي طوال هذه السنين؟ أتريد مفارقتي الآن بعد كل ما فعلته من أجلك؟ إن والدك لم يكن من طرازك، كان يقف إلى جوار أصدقائه في السراء والضراء، لكنك يا "رتشارد" صديق منفعة لا تعرف إلا أيام الرخاء وحسب والآن تود الخلاص مني..

قال "رتشارد":

- يا سيدي، إنني شاكر ومخلص حين أكون مدينا بالشكر والإخلاص، وأنا شاكر لك وللسير "أوليفر" على كل ما قدمتماه لي..

قال السير "دانييل":

- رائع، لكنني أطمع إلى الأفعال لا الأقوال، هلم الآن، ما الذي تريده؟ إن كان عندك شيء ضدي، تحدث..

قال "رتشارد":

- يا سيدي، لقد مات أبي وأنا طفل ولقد سمعت أنه مات مقتولاً ولن أعيش هانئاً إلى أن أنتقم من قاتله، فمن قتل والدي..؟

جلس السير "دانييل" وهو يحدق في "رتشارد" وسأله:

- أتظنني أتخذك ربيباً لي لو كنت قتلت أباك؟

قال "رتشارد":

- دعني أجيب بوضوح، إنك وحيي في مالي ورجالي وفي الإعداد لزواجي، ربما كان كل ذلك سبباً لاتخاذك لي ربيبا.

- إذن فسأجيبك بوضوح يا مستر "رتشارد"، إنني لن أتظاهر بأنك لم تغضبني، لكنني الآن غاضباً بالفعل فعد إلى حين تكون رجلاً بالغاً وليس ربيبي .. عد إلى وقتها وسأجيبك بلكمة في الفم. . لكن إلى أن نصل إلى ذلك الزمن عليك بأن تلزم الصمت إن لم تشأ هذا فأذهب..! إن الباب مفتوح والغابات مليئة بأعدائي..

قال "رتشارد":

- إنني لا أرغب إلا في تصديقك يا سير "دانييل" فهل تقسم لي إنك برئ من قتل أبي..؟

قال السير "دانييل":

- أقسم بالله أنه لا شأن لي بمقتل أبيك..

ومد يده إلى "رتشارد" الذي تناولها في حماس.. ولم ير أي منهما السير "أوليفر"، القس الذي وقف وقد كست ملامحه أمارات الرعب من القسم.

قال "رتشارد":

- أريدك أن تسامحني لريبتي فيك، ولن استمر في ذلك..

قال السير "دانييل":

- أنني أسامحك..

قال رتشارد:

- كنت أحمقاً، ولقد ذكر أولئك الذين حكوا الحكاية أن السير "أوليفر" أيضاً ملوم على قتل أبي..

ثم التفت إلى القس وكأن وجه القس شاحباً وشفتاه تتحركان وإذا بصيحة تفلت منهما وهو يداري وجهه بين كفيه، فأسرع السير "دانييل" إليه وأخذه من كتفه **وهو يقول:**

- إن السير "أوليفر" سوف يقسم بأنه برئ كذلك من دم أبيك..

هل السير "أوليفر" ذراعيه في صمت..

قال له السير "دانييل":

- إنك ستقسم على هذا الكتاب..

لكن القس لم يقدر على الحديث، فقد كان في رعب من السير "دانييل" ومن الحلف كذبا..

في هذه اللحظة انطلق عبر نافذة القاعة سهم أسود استقر في المائدة فهوى القس أرضاً مغشياً عليه، اندفع السير "دانييل" و"رتشارد" إلى الخارج، كانت الشمس تشرق على العشب والأشجار، لم يكن ثمة إشارة إلى أي عدد..

صاح السير "دانييل":

- من أين أتي السهم..؟

قال جندي:

- من بين الأغصان..

التفت الفارس إلى "رتشارد" وقال:

- عليك بمراقبة هؤلاء الرجال، إنني أعهد إليك بالمسئولية الآن.

أما بالنسبة للقس فسوف يقسم، سأجعله يقسم على أنه برئ من دم أبيك..

أجاب "رتشارد" ببرود، كان الفارس قد عاد إلى القاعة، تناول السير "دانييل" السهم وقد ملأه بالرعب منظره الأسود، قرأ على السهم كلمة واحدة.

(الثعلب المقبور)..!

صاح السير "دانييل":

- آه، أنهم يعرفون إنني في القصر، لكن ليس منهم من يجرؤ على إخراجي منه..

فتح السير "أوليفر" عينيه ونهض من الأرض.. صاح:

- آه يا سير "دانييل" لقد سمعتك تردد القسم الشنيع.. لسوف يعاقبك الله..

قال السير "دانييل":

- أجل، لقد أقسمت ولسوف تقسم أنت أيضاً، سوف تقسم هذا المساء فكن على استعداد..

صاح "القس":

- فلتنقذ السماء من ذلك الشيطان وتطهر قلبك من الشرور..

قال السير "دانييل":

- أنصت أيها الرجل الطيب، إن كنت عاقلاً نفذ ما أقول، إن ذلك الصبي بدأ يزعجني وأنا في حاجة إليه لكي أفيد من زواجه، لكنني أنذرك أنه لو واصل إزعاجه لي فإنه سيلحق بأبيه: لقد أصدرت أوامري بأن ينتقل إلى الحجرة فوق كنيسة القلعة، فلو أقسمت أنت سيصدقك وسيعود كل شيء الى سابق العهد به ولن يحيق بالصبي شيء، فإن لم يصدقك سيلقي حتفه.

صاح القس:

- الحجرة فوق كنيسة القلعة..! إنني سأرتكب الشر لأجل الخير.. سأقسم لأنقذ حياته.

- حسناً، أرسل إليه من يستدعيه، ستلقاه وحيداً، لكنني سأراقبكما..

غادر السيد "دانييل" الحجرة، بعد ثلاث دقائق دخل "رتشارد" القاعة وألتقى بالقس واقفاً إلى جوار المائدة..

قال "القس":

- لقد طلبت إلى يا "رتشارد" أن أقسم على أن لا صلة لي بمقتل أبيك، أنا أقسم أنني لم أقتل أباك..

ظل "رتشارد" واقفاً وعيناه تجولان في الحجرة. كان وجهه يتناوبه الشك والدهشة والرعب، صفا عقله أكثر، وعندئذ أصبح أكثر يقيناً!

رفع رأسه ورأى شيئاً ملآه بالدهشة والرعب، على الجدار لوحة صياد ووجه الرجل مظلم.

الآن إليكم ما أدهش "رتشارد شيلتون"، لقد انحسرت الشمس عن نوافذ القاعة، واشتعلت النار عالياً وألقت ضوءها على الجدران والستائر واللوحات هنا تحركت عين الصياد..

واصل "رتشارد" التحديق في العين التي تركز عليها الضوء كالجوهرة، كانت حيه، وتحركت مرة أخرى..

الآن اختفت العين من الوجه، كانت العين تراقبه من خلال ثقب في اللوحة..

فهم "رتشارد" في التو الخطر المحيط به، لقد حذره "هاتش" ورسم له القس أشارات بوجهه، تلك العين كانت تراقبه.

فهم "رتشارد" أنه قد انعقدت له محاكمة وإنه كشف عن خباياه، الآن لم ينقذه سوى حظه السعيد..

فكر:

- آه لو أمكنني أن أفارق القلعة، إنني رجل ميت! يا للمسكين "ماتشام"، لقد دفعت به إلى الخطر بنفسي!

قطع حبل أفكاره دخول خادم يقول له:

- لقد نقلوك إلى حجرة أخرى. فهل تساعدني في نقل متعلقاتك؟

قال "رتشارد":

- حجرة جديدة، لماذا؟ أية حجرة؟

أجاب الخادم:

- الحجرة فوق كنيسة القلعة..

قال "رتشارد":

- أنها مهجورة منذ عهد طويل، ما شكل هذه الحجرة؟

قال الخادم:

- حجرة ممتازة، لكن أحد القساوسة نام فيها ذات مرة وفي الصباح كان قد مات، لقد سلبه الشيطان روحه..

كان "رتشارد" مذعوراً..!

- 11 -
حجـــرة المـــوت

مالت الشمس نحو المغيب، لم ير حراس الأسوار شيئاً حياً.. وحين أقبل الليل اقتيد "ثروجمورتون" إلى حجرة تطل على الخندق، ومن هناك دلوه بحبل أمكن سماع صوته سباحته لبرهة قصيرة، ثم شوهد شبح أسود قرب شجرة على الجانب الآخر، أنصت السير "دانييل" و "بينيت هاتش" لمدة نصف الساعة، لكن كل شيء كان في هدوء. يبدو أن "ثروجمورتون" قد اجتاز طريقه في أمان.

التقت السير "دانييل" إلى "بينيت هاتش" وقال:

- يا بينيت، إن هذا "الجون" المنقذ مجرد رجل وهو نائم ولسوف ننتهي منه..

طيلة ما بعد الظهر انشغل "رتشارد" بالتنقل من مكان إلى آخر ناقلاً للأوامر، وطوال ذلك الوقت لم يشاهد "جون ماتشام" أو السير "أوليفر"، كل هدفه الآن أن يهرب من القلعة قدر الإمكان، أخيراً، والمصباح في يده ذهب إلى حجرته الجديدة، كانت حجرة واسعة منخفضة السقف، ومعتمة، تطلع من النافذة إلى الخندق، لكن قضبان النافذة كانت متينة. تفقد الجدران وفحصها بعناية، الباب متين وكذلك المزلاج وضع المصباح جانباً ونظر حوله مرة أخرى..

لماذا نقل إلى هذه الحجرة؟

كانت أكبر مساحة من حجرته.. ألها مدخل سري..؟ هل تسكنها روح شريرة؟

انتابه رعب جمدت له أطرافه.

فوقه يسمع صوت جندي يغدو ويروح، تحته الكنيسة، ربما ثمة طريق سري من القاعة إلى هذه الحجرة..

علم "رتشارد" أنه من الخطر أن ينام في هذه الحجرة..جهز سلاحه وجلس خلف الباب، لو أن هناك محاولة لقتله، فإنه سيقاتل من أجل حياته..!

عند ذلك سمع صوتاً يهمس من خلف الباب:

- "رتشارد"، "رتشارد"، أنه أنا..

أسرع إلى الباب وفتحه.. دخل "جون ماتشام" بوجه شاحب، وفي إحدي يديه سكين وفي الأخرى مصباح.

قال "جون":

- سارع وأغلق الباب.. هناك ناس تراقبني وتتبعني لأي مكان

أغلق "رتشارد" الباب وقال:

- أننا في أمان هنا، وإنني مسرور لرؤيتك، أين كنت مختفياً..؟
- هذا لا يهم يا "رتشارد"، هل تفهم كيف تسير الأمور؟
- إنهم ينوون قتلك الليلة أو في الغد، سمعتهم يتهامسون بذلك..!

قال "رتشارد":

- آه..! اعتقدت ذلك..!

وراح يحكي لـ"جون" ما حدث، وحين انتهى نهض "جون" واقفاً وراح ينظر إلى الجدران والباب.. وقال:

- لا، لا يوجد مدخل، لكن من المؤكد أنه يوجد مدخل سري، "رتشارد"، إنني سأمكث معك، فإن كنت ستموت فسأموت معك، وإن

استطعت أن أعاونك، أنظر؛ لقد أحضرت سكيناً وسأبذل ما بوسعي، هل تدري أي طريقة للفرار..؟ سأواجه الخطر بكل سرور لأذهب معك..

قال "رتشارد":

- إنك يا "جون" أشجع وأنبل صبي في انجلترا، أعطني يدك..

تناول يد "جون" في سكون، ثم قال:

- هناك أمل واحد، لقد دلوا رسولا من الغرفة البنية ولا يزال الحبل هناك..

قال "جون":

- صمتا..!

وأنصت الاثنان، فإذا بصوت تحت الأرض، توقف، ثم بدأ من جديد..

همس "ماتشام":

- ثمة شخص يمشي في الحجرة السفلي ..

قال "رتشارد":

- كلا، لا توجد حجرة أسفل ، نحن فوق الكنيسة. أنه قاتلي قادم من ممر سري.. حسن فليجئ فنحن مستعدان له..!

قال "جون":

- أطفئ المصباح..

أطفأ المصباح وانتظر، سمعا صوت الخطوات مرة أخرى.

ثم شاهدا ضوءا في ركن من الحجرة وبابا يفتح في الأرضية، ويداً قوية تزيح الجزء المتحرك، تجهز "رتشارد" بالقوس منتظراً ظهور رأس الرجل..

لكن الآن حدث ما لا يتوقع حدوثه، اندلعت صيحات من كل مكان بالقلعة، **سمع "رتشارد" صوت السير "دانييل" يصيح:**

- "جوانا"..

قال "رتشارد":

- "جوانا" ..؟ من هي..؟ أخبرني يا "جون"، هل شاهدتها؟

أجاب "جون":

- لا..
- أو سمعت عنها..؟
- أجل .. سمعت عنها..

قال "رتشارد":

- كم صوتك مهزوز..!

صاح "جون":

- أوه يا "رتشارد"، لقد ضعت، لقد ضعنا معاً.. فلنهرب! لو طاردني هؤلاء الناس فلن يهدأ حتى يعثروا عليَّ.. عليك بالفرار، ودعني أخرج، يا "رتشارد" الطيب، دعني أهرب!

كانت يدها على المزلاج، فهم رتشارد أخيراً – قال:

- إنك لست "جون"، بل "جوانا سيولي"! إنك الفتاة التي كنت سأتزوجها..!

توقفت الفتاة وسكتت، كان رتشارد كذلك ساكتاً لبرهة، ثم شرع يتحدث، قال:

- يا "جوانا"، لقد أنقذت حياتي، ولقد أنقذتك، لقد رأينا الدم ينزف وكنا صديقين وعدوين. أخذت عصا لأضربك وأنا أظن طوال ذلك أنك

صبي، إنك أفضل وأشجع بنت في الدنيا، ولو أتيحت لي فرصة الحياة فسوف أتزوجك بكل سرور، وإن مت أو عشت فإنني أحبك..

لم تجب "جوانا"..

- هلمي تحدثي يا "جوانا"، كوني بنتا طيبة وقولي أنك تحبينني..

صاحت:

- لماذا يا "رتشارد" أنا هنا لو لم أكن.؟

قال رتشارد:

- حسن، فإن هربنا سنتزوج، ولو كنا سنموت فنموت معاً؟ وهذه نهاية الحكاية..

كانت هناك يد تدفع الباب.. **وصوت يقول:**

- افتح يا سيد "رتشارد"، افتح..!

لم يتحرك "رتشارد" ولا أجاب..

قالت الفتاة وهي تلف ذراعيها حول عنق "رتشارد":

- أنها النهاية..

تدافع الرجال إلى الباب، ثم وصل السير "دانييل" فساد السكون.

صاح السير "دانييل":

- لا تكن أحمق يا "رتشارد"، إننا نعلم أنها هنا فافتح الباب..

سكت "رتشارد" ولم يجب..

صاح السير "دانييل":

- حطموا الباب..!

بدأ رجاله الهجوم على الباب بعنف، لكن العناية تدخلت لإنقاذ الاثنين..

كان أحد الحراس على الأسوار يطلق صيحة تحذير – وكان الرجال يتصايحون وتجاوبهم صيحات أخرى من الغابة..

هرع السير "دانييل" ورجاله لحماية الأسوار..

قال رتشارد:

- الآن، نجونا..

سحبا الفراش الثقيل عبر الحجرة ووضعاه خلف الباب..

قالت "جوانا":

- لا فائدة .. فسوف يأتي من الباب الأرضي..

قال:

- كلا، فلن يجرؤ على إفشاء سره للكثيرين..أنصتي..!

لقد انتهى الهجوم أو لم يكن هناك هجوم..

حقاً، أم يكن ثمة هجوم، مجرد مجموعة من رجال السير "دانيال" عائدون من المعركة..

قال "رتشارد":

- سرعان ما يعود، فلنذهب من الباب السري..

أضاء المصباح وهبطا من الفتحة السرية.. بعد أن فتحها "رتشارد" بسيفه.. شاهدا درجات سلم قليلة تؤدي إلى الأسفل، وفي نهايتها مصباح تركه القاتل..

قال "رتشارد":

- هلمي اسبقيني وخذي المصباح وسأتبعك بعد أن أغلق الباب..

وهكذا هبطا الواحد خلف الآخر، وبينما هما ذاهبان سمعت أصوات طلقات عند الباب الخارجي..

- 12 -
الممـــــــر!

كان الممر الذي وصلا إليه ضيقاً قذرا وقصيرا، في نهايته باب نصف مفتوح، خلف الباب ممران، أحدهما إلى اليمين والثاني إلى اليسار، اختار "رتشارد" أحدهما فأسرعا فوق سطح الكنيسة.

كانت هناك فتحات في الجدار وحين نظر إلى الأسفل من خلال إحداها رأى "رتشارد" السير "أوليفر" يصلي في الكنيسة..

في نهاية الممر هبطا بضع درجات سلم، وسمعا ضجيج ناس يتحدثون وإذا بالضوء يأتي من خلال فتحات الممر، "رتشارد" فإذا بالناس داخل القاعة يأكلون ويشربون، وبينهم هؤلاء الذين وصلوا من المعركة..

قال "رتشارد":

- لا فائدة من هذا الطريق.. فلنعد أدراجنا..

قالت "جوانا":

- كلا، ربما يؤدي بنا الممر إلى مسافة بعيدة..

بعد ياردات معدودة انتهى الممر إلى درجات تؤدي إلى القاعة. لا مفر من خلال هذا الطريق.

أسرعا بالعودة وهبطا الممر الثاني، كان شديد الضيق وفيه سلالم للصعود والنزول، كانت جدرانه رطبة.. واستطاعا سماع – الفئران تتحرك..

قال "رتشارد":

- أظن أننا في سجن أسفل القلعة..

قالت "جوانا":

- وما من مهرب..

- لا.. بل لابد من وجود مهرب..

انتهى بهما الممر إلى درجات صخرية أعلاها درجة مربعة الشكل وضخمة.. دفعا الصخرة لكنها لم تتحرك..

قال "رتشارد":

- لا يوجد أي منفذ هنا، إننا سجينان، فأجلس لنتحدث، بعد قليل سنعود من حيث أتينا ولن يلاحظوا غيابنا.

قالت "جوانا":

- أوه يا "رتشارد"، إنني أنا التي قادتك إلى هنا..

- أنه حظنا وحسب وهو قدرنا ومصيرنا، لكن خبريني، من أنت..؟ وما الذي ألقى بك في قبضة السير "دانييل"..؟ خبريني، إن هذا أفضل منم البكاء بالنسبة لكلينا..

قالت "جوانا":

- لقد مات أبواي، وأنا في غاية الثراء، وهذا سبب متاعبي.. كنت ربيبة للورد "فوكسام" ومنه اشترى السير "دانييل" الحق في ترتيب زواجي، لقد دفع للملك مالاً كثيراً لأجل هذا، لقد تقاتل السير "دانييل" واللورد "فوكسام" من أجلي، ولقد حدث تغير في الحكومة واستطاع اللورد "فوكسام" أن يستعيدني. لقد أراد تزويجي من رجل اسمه "هاملي"، ثم وجدني السير "دانييل" في الحديقة فأجبرني على ارتداء ثياب صبي واصحبه على جواد إلى **كيتلي** وأخبرني أنني سأتزوجك..

توقفت فجأة، سمعا صوت خطوات شخص قادم بمصباح، وها هو "هاتش" يحمل مصباحاً..

صاح "رتشارد":

- قف وإلا قتلتك..

صاد "هاتش" وهو ينظر خلال الظلام:

- إذن فأنت هنا، ولن تقتل صديقاً قديماً.. هل معك الفتاة هنا..؟

قال "رتشارد":

- إنني هنا وسأظل هنا، وليأتي السير "دانييل" ليخرجني بالقوة أن استطاع..

قال "هاتش":

- أنصت..! أنني عائد إلى السير "دانييل" لأخبره بمكانك، لكن لو كنت عاقلاً فستذهب بسرعة وأمان.. فأذهب قبل أن أعود..

قال "رتشارد":

- أذهب..؟ كنت أتمنى، لقد كنت على وشك الذهاب، لكنني لا أستطيع تحريك الصخرة..

قال هاتش:

- ضع يدك في جانب وانظر ماذا ستجد هناك ولاحظ أن حبل "ثروجمورتون" لا يزال هناك..

ثم استدار وذهب..

تناول رتشارد المصباح، وقرب الصخرة كانت فجوة.. مد يده فيها ووجد قضيباً من الحديد..جذبه لأعلى وإذا بالصخرة تتحرك..

***

- 13 -
كيف غير "رتشارد" موقفه

كان الحبل لا يزال مربوطاً إلى الفراش في الحجرة البنية اللون، وكان طرف الحبل الآخر ملقي على الأرض.. أخذ "رتشارد" الحبل إلى النافذة وبدأ يدليه في بطء في الظلام..

سمع صوت نزول الحبل في الماء، وصرخ جندي:

- من هناك..؟

قال رتشارد لـ"جوانا":

- انزلي الآن..

صاحت:

- لا أستطيع..

- يجب عليك أن تفعلي، كيف يمكنني أن أعبر الخندق أن لم تنزلي..؟ لا أستطيع السباحة وعليك أن تعاونيني.

قالت "جوانا":

- لا أستطيع النزول بالحبل، فقوتي تلاشت..

صاح "رتشارد":

- إذن فقد ضعنا..!

سمعت أصوات أقدام، أسرع "رتشارد" إلى الباب وحاول إغلاقه.. لكن أذرع قوية دفعته، فأسرع عائداً إلى النافذة.

ها هي الفتاة جالسة بلا حراك تجاه الجدار.. حاول أن يرفعها بذراعيه، وسرعان ما كان الرجال الذين اقتحموا الحجرة فوقه، ضرب "رتشارد" أول

رجل بالسكين، ثم أسرع إلى النافذة وتلقف الحبل وبدأ الهبوط، أدمي الحبل يديه وهو يدور ويدور أثناء هبوطه، زأر الهواء في أذنيه، رأى النجوم فوق رأسه.. والنجوم في الخندق المائي تتلألأ.. ثم تراخت يداه عن الحبل ووقع في الماء..

وكان هناك ضوء في الأعلى.. ومصابيح على الأسوار ورجال يطلون عليه، لكن الضوء لم يصل إليه.. ولم يستطيعوا رؤيته..

وإذا به فجأة يتعلق بغصن شجرة على الضفة الأخرى..

ظل هناك مبتلاً وعاجزاً عن التنفس..

أمطره الرجال بوابل من السهام والصخور، ثم تبعتها قطعة خشب مشتعلة، لكنها جميعاً لم تصبه بسوء، لكنها سقطت على حافة الضفة فاشتعلت أكثر وإذا بلهبها يضيء المكان.. ولحسن حظ "رتشارد" أنها عادت وسقطت في الماء، أسرع "رتشارد" يهبط من الشجرة ويطلق ساقيه للريح لينجو من الموت.. لكن انطلق سهم وأصاب كتفه، بينما تبعه آخر وأصاب رأسه..

أجبره ألم الجرح على الإسراع بالعدو.. واصل العدو في الظلام.. ولم يفكر في أي اتجاه هو.. ثم توقفا التماسا للراحة مستنداً إلى شجرة، كان مبتلاً وجريحاً ووحيداً.. لقد أنقذ حياته ولكنه فقد "جوانا".. أنه لا يخشى أن يؤذيها السير "دانييل"، فإنه سيزوجها إلى أحد أصدقائه..

وفكر رتشارد:

- حسن، الآن لست مدينا للسير "دانييل"، ولم أعد خادمه المخلص، فلتكن حرباً بيننا..!

قاوم، لكن الالم بلغ من الشدة أنه لم يعد يفكر ولا يجد طريقة، أخيراً جلس مستنداً إلى شجرة ونام..

***

حين استيقظ "رتشارد" كان ضوء الفجر قد غزا الكون، هبت ريح باردة بين الأشجار، جلس ينظر أمامه، فرأى شيئاً يتحرك جيئة وذهاباً بين أغصان شجرة تبعد نحو المائة ياردة.. كانت جثة رجل تتدلى من غصن شجرة ضخمة...

اقترب "رتشارد".. وقطع الحبل فسقطت الجثة على الأرض، نظر "رتشارد" إلى الوجه فإذا به "ثروجمورتون"، إنه لم يبتعد كثيراً بالرسالة..! قتله السهم الأسود، كانت ثمة ورقة داخل معطفه لم يلاحظها رجال السهم الأسود..

تناولها "رتشارد" ومضى يسير في الغابة..

أصبح "رتشارد" أكثر ضعفاً، كانت في أذنه ضجة، فظن أنه في حلم..

لم يدر أين يذهب، ثم في النهاية خرج إلى الطريق غير البعيد عن قرية **تونستال**..

صاح به صوت خشن:

- قف..!

قال "رتشارد":

- أقف..؟ إنني موشك على الوقوع..!

وهوى على الأرض..

خرج رجلان من بين الأغصان، كانا يرتديان الثياب الخضراء ويحملان قوسين وبعض السهام..

قال أصغر الرجلين:

- لماذا..! أيها الخارج على القانون، إنه "شيلتون" الصغير..

قال الآخر:

- حسن، سير "جون المنقذ" برؤيته.. لكنه لقى المتاعب..! انظر..! ها هو جرح في كتفه وآخر في رأسه، من فعل ذلك..؟ ليس أحد رجالنا فيما آمل.. وإلا فلن يرحمه "جون المنقذ"..

قال الأصغر:

- ضعه على ظهري..

وبذلك حمل الخارج على القانون "رتشارد"..!

وجد الرجلان "إيليس داكويرث" في القرية وسرعان ما أوقف النزيف وعولجت الجراح وضمدت، وفتح "رتشارد" عينيه..

قال "إيليس":

- أنت يا صبي بين أيدي الأصدقاء، لقد أحببنا أباك، لا تقم بأي حركة، وستخبرني لاحقاً بحكايتك..

وعاد "إيليس" بعد مدة طويلة إلى "رتشارد"، فأخبره الصبي بحكاية فراره من القلعة..

قال "إيليس":

- حسن، أنت محظوظ بأن هربت من المخاطر، ومحظوظ بأن تقع في يدي، ثق بي وسننتقم من السير "دانييل"..

سأله "رتشارد":

- هل ستهاجم القلعة..؟

- كلا، أكون مجنوناً لو فكرت في ذلك، فالسير "دانييل" في منتهى القوة، وعلينا، أنا ورجالي، أن نسارع بمغادرة الغابة.

- وماذا عن "جون"..؟

- "جون"..! أوه، تقصد الفتاة.. إن كان هناك حديثه عن تزويجها بشخص آخر فسوف نتحرك في الحال، لكن إلى أن يحين الحين علينا أن نختفي كالظلال في الصباح..

- بعد يومين تلقى السر دانييل دفعة كبيرة من الرجال، ولم يعد بحاجة إلى الخوف من الهجوم..

انفتح باب القلعة وخرج السير "دانييل" ؟إلى القرية.. وبينما هو يسير وضع شخص ورقة في يده (إنك قاتل أبي، وذات يوم سأقتلك، ودعني أخبرك بالمزيد، إنك لو حاولت تزويج "جوانا" لأي إنسان آخر سأسرع بك إلى النهاية...)

توقيع رتشارد شيلتون

- 14 -
اجتـــماع ســـــري...

مرت شهور منذ هروب "رتشارد" من القلعة وحدثت أشياء كثيرة في **انجلترا** منذ ذلك الحين، لقد انتصر حزب السير "دانييل" واللورد "ريزنجهام" في المعركة، وصار السير "دانييل" الآن غنياً وقوياً..

وفي مساء يوم بارد في الأسبوع الأول من يناير كان ثمة رجال يجلسون في خان، كانوا ضخام الأبدان وأقوياء حتى ليفكر الإنسان ألف مرة قبل أن يعاركهم.

على مسافة يسيرة منهم جلس شاب يرتدي نفس الثياب ولكن من نظراته يدرك المرء بجلاء أنه أفضل منهم نشأة وتهذيباً..

قال رجل:

- لا تعجبني هذه الحياة، أحب الريح الفسيح، إننا هنا في بلده **شوربي** محاصرين بالعداء من كل جانب..

قال آخر:

- إننا هنا من أجل المستر "شيلتون"، صديقنا..

وأشار إلى الشاب الجالس إلى جوار الباب..

عاد الأول يقول:

- سأفعل الكثير لأجل المستر "شيلتون"، لكنني لا أريد أن يتم شنقي لهذا...

انفتح باب الخان ودخل رجل يقول:

- يا مستر "شيلتون"، إن السير "دانييل" خارج من منزله..

نهض "شيلتون" في الحال وصاح:

- هلم بنا يا "جرينشيف" و"كابر".. سنتبعه وننظر إلى أين هو ذاهب..

وسرعان ما كان الثلاثة في الخارج وسط الظلام.

كانت البلدة نائمة، ولا أحد يتحرك في الشوارع، وكان من السهل تعقب السير "دانييل"، تقدم السير "دانييل" جنديان يحملان مصباحين، وواحد خلفه وخلف الرجل أربعة من القناصة..

قال "رتشارد":

- لقد ذهب من هذا الاتجاه وكان يفعل ذلك كل ليلة..

قال رجل:

- نعم أنها الليلة الثالثة التي يفعل فيها ذلك وفي نفس الساعة يا مستر "شيلتون"..

وصل السير "دانييل" ورجاله الآن إلى حافة البلدة ودخلوا زقاقاً وسمعوا صوت هدير أمواج البحر، ثم شاهدوا ضوءاً أتياً من الاتجاه الآخر.. توقف السير "دانييل" وبدا كأنه ينتظر شخصاً، اقترب الضوء الآخر، ومعه أربعة رجال، قناصان، ورجل يحمل مصباحاً ورجل نبيل يمشي في الوسط..

قال السير "دانييل":

- أهو أنت يا سيدي اللورد..؟

- أجل، أنه أنا، كنت أفضل مواجهة العمالقة أو أسوأ الاعداء عن ذلك البرد القارس..

قال السير "دانييل":

- سيدي اللورد، كل شيء يهون من أجل الجمال .. حين ترى السيدة يمكنك العودة إلى البيت..

- لو كانت صغيرة وجميلة، فلماذا لم تحضرها مع بقية السيدات..؟
- كنت سارعت بتزويجها، ولم تكن هناك حاجة لخروجي في البرد لمجرد أن أراها..
- لقد ذكرت لك الأسباب يا سيدي اللورد، ولو انتشر الخبر عن قرب زواجك بـ"جوانا سادلي" لانتهت حياتك بسهم أسود..

كان النبيلان يغذان السير.. تبعها "رتشارد" عن كثب، عرف "رتشارد" الرجل الآخر، إنه اللورد "شوربي"، رجل من أسافل الناس.. هبط النبيلان إلى حافة البحر.. قرب البحر منزل صغير رائع يحوطه سور.. أقفل رجل يحمل مصباحاً الباب بالمفتاح.. لقد دخلا إلى الحديقة.. كان الباب مغلقاً خلفهم. جلس "رتشارد" وصديقاه قرب شجرة وانتظروا..

مرت عشرون دقيقة ثم عاد النبيلان وأتباعهما، وذهبوا وبمجرد أن اختفوا نهض "رتشارد" يقول:

- هل ستعاونني يا "كابر" على اعتلاء ظهرك لأتسلق السور؟

انحنى "كابر" وصعد "رتشارد" على كتفيه ووصل إلى أعلى السور.. فجلس هناك .. **وقال:**

- الآن يا "جرينشيف" اصعد إلى هنا وعاونني على الهبوط في الجانب الآخر فأهبط بسلام في الحديقة..

هبط "رتشارد" في الحديقة، كان الداخل شديد الحلكة فلا ضوء في المنزل، مضى "رتشارد" بحذر إلى الأمام متحسساً طريقه بيديه، ثم شعر بالممر تحت قدميه، رفع القوس مستعداً، كان الممر يؤدي إلى المبنى الذي تحطم جزء كبير منه.

دار "رتشارد" حول المبنى، أخيراً وصل إلى الجانب المطل على البحر فأبصر ضوء ضئيلاً في إحدى النوافذ العليا. احضر سلماً وصعد..

في الحجرة شخصان، الأولى للسيدة "جودي هاتش" (زوجة بينيت هاتش) والأخرى فتاة طويلة جميلة.. أيمكن أن تكون هذه هي "جوانا سيدلي" رفيقته القديمة في الغابة..؟ أهي "جون".. الذي كان على وشك أن يضربه بالعصا..؟ لم يكن يظن أن حبيبته على كل هذا القدر من الجمال..!

ثم سمع صوتاً خفيضاً من أسفل السلم، فصاح:

- ماذا يا "جرينشيف"..؟ ماذا تريد؟

- إن المنزل مراقب يا مستر "شيلتون"، إنني أرى رجالاً يتحركون حوله في الظلام وسمعتم يصفرون..

قال رتشارد:

- هذا غريب للغاية.. هل هم رجال السير "دانييل"؟

- لا، إنهم يرتدون القماش الأبيض على قبعاتهم..

هبط "رتشارد" من السلم وأزاحه بعيداً، كان "كابر" الآن في أعلى السور وقد ساعدهما في الصعود، ثم نزلوا إلى الجانب الآخر..

قال "رتشارد":

- الآن يا "كابر" عد إلى "شوربي" بأسرع ما يمكن وأحضر كل الرجال، أما أنت يا "جرينشيف" فسندور في الحديقة وننظر..

وبعد الدوران وصلا إلى جانب من الحديقة حيث صور الحديقة مبني قرب الشاطئ..

خاضا في الماء، أحياناً كان الماء يعلو حتى ركبتيهما، فجأة شاهدا رجلا يرسل بعض الإشارات ثم رجلا آخر بعيداً يجاوبه..

قال "رتشارد":

- أنهم يجيدون الحراسة..

قال "جرينشيف":

- فلنعد إلى الأرض- فلربما لمحونا..

قال "رتشارد":

- أنت على صواب، فلنذهب بسرعة..

***

- 15 -
قتال فـي الظـلام..

عاد "رتشارد" و"جرينشيف" إلى الزقاق واختفيا تحت شجرة.

قال "رتشارد":

- أمل أن يعود "كابر" بسرعة.. ففي هذا المنزل السيدة التي أحبها. من يكون هؤلاء الناس الذين يتحركون حولها في السر بالليل؟ ليسوا أصدقاء. أعرف..

قال "جرينشيف":

- حسن، إن جاء "كابر" بسرعة قاتلناهم، إنهم لا يزيدون عن الأربعين مبعثرين هنا وهناك، وبإمكان عشرين منا أن يدحروهم، رجال من هؤلاء في رأيك؟

- أظن أنهم رجال اللورد "شوربي".. متى وصلوا..؟

- حين كنت تعتلي السور، لقد شاهدت أولهم يأتي زحفاً..

انطفأت أضواء المنزل حيث كان "رتشارد" وصاحبه يسيران بعيداً عن المنزل.. كان من المستحيل تحديد الموعد الذي سيبدأ فيه المختبئون الهجوم..

إنه فظيع أن تكون "جوانا" في قبضة السير "دانييل" لكن الأفظع أن تقع في قبضة اللورد "شوربي"..

هو ربع الساعة وعاد الرجال يتبادلون الإشارات ثم بدأ رجال "رتشارد" يتوافدون، سرعان ما كان عشرون منهم يتوارون معه بين الأشجار وقد قسمهم إلى مجموعتين، واحدة معه والثانية مع "جرينشيف".

قال لـ"جرينشيف":

- الآن، خذ رجالك إلى ركن الحديقة القريب من الشاطئ.. وانتظر حتى تسمعني أهاجمهم في الركن الآخر، إن قائد العدو سيكون قرب البحر وأنا أريد أن أتأكد من أسره.

سر الرجال كثير لأنهم سيقاتلون...

غريبة لصوص وقتلة وعمال زراعيون، كانوا مجموعة تبناهم "داكويرث" وأصبحوا خير المقاتلين، خلعوا معاطفهم واستعدوا، كانت ثياب بعضهم خضراء، بينما ارتدى البعض الآخر المعاطف الجلدية وتسلح الكل بالسيوف والحراب..

وصل "رتشارد" إلى الجانب الآخر من المنزل، صف رجاله في طابور على بعد عشرين ياردة من سور الحديقة ووقف في مقدمتهم.. ثم صاحوا وجروا تجاه العدو..

كان العدو مبعثراً فأخذته المفاجأة.. وقبل أن يتجمع شملهم ويتأهبوا للقتال انطلقت صيحة من الجانب الآخر للمنزل ففقدوا الأمل وراحوا يجرون، فاجتمعت المجموعتان وضيقنا عليهم الخناق عند سور الحديقة.. فاجأت مجموعة "رتشارد" العدو، لكن عدد الجند كان كبيراً وكان البحر هائجاً، وبدأت المعركة بين الماء وسور الحديقة..

في البداية قاتل "رتشارد" ثلاثة رجال، فجندل أحدهم ثم هاجمه الآخران، كان أحدهما ضخماً كالعملاق أمسك سيفه بكلتا يديه أما الثاني فابطأ وأصغر..

نجا "رتشارد" من ضربة سيف من العملاق، وجرى إلى أعلى.. كانت ثمة صرخة ألم، وقبل أن يتمكن العملاق من رفع سيفه مرة أخرى ضربه "رتشارد" وأسقطه أرضاً..

في اللحظة التالية كان "رتشارد" يقاتل الآخر، البطيء.. واستمر القتال وكان الاخر أكبر سناً بينما "رتشارد" أكثر خفة وأسرع حركة.. وسرعان ما تراجع الرجل يتبعه "رتشارد" إلى أن وصلا إلى الماء وخاضا فيه يتقاتلان.. قرر

"رتشارد" إنهاء القتال بسرعة. أقبلت موجة من البحر فقفز "رتشارد" على عدوه فغاص تحته **وهنا أسرع "رتشارد" واختطف سيف الرجل وصاح فيه:**

- استسلم! وسأهبك حياتك..!

قال الرجل:

- إنني استسلم، إنك لا تعرف كيف تقاتل، لكنك تقاتل بشجاعة..!

ارتد "رتشارد" إلى الشاطئ، كان القتال لا يزال يدور.. وصليل السيوف وصيحات الألم تعلو على هدير أمواج البحر.

قال الرجل الذي قهره "رتشارد":

- خذني إلى قائدك..

قال "رتشارد":

- إنني أنا القائد..
- إذن فمر رجالك بالكف عن القتال وسامر رجالي..

كان الرجل يتحدث بنبل.. فصاح "رتشارد" برجاله:

- أوقفوا القتال....!

وصاح الغريب كذلك:

- أوقفوا القتال يا رجال، فقد استسلمت..!
- وفي التو ساد السكون..

قال الغريب:

استدع السير "دانييل" هنا ....

- السير "دانييل" ..؟ أنه ليس هنا، كنت أصبح حزينا لو جاء..
- لماذا..؟ ألست في جيش السير "دانييل"..؟ أنني لا أفهم..

صاح صوت من الظلام:

- يا سيدي اللورد، لو كان هؤلاء الرجال أعداء السير "دانييل" فمن العار أن نقاتلهم، وربما وصلت ضجة القتال إلى البلدة، ولو لم نذهب سريعاً لهاجمنا جميعاً عدو جديد!

قال الغريب:

- إن "هاو كسلي" على حق، إنني سجينكم وعلينا أن نذهب..

قال "رتشارد":

- اذهبوا! حيث شئتم لكنني أعتقد أن لدينا ما يجعلنا أصدقاء، فلنتفق على اللقاء مرة أخرى..!

قال الآخر:

- أرى أنك أهل للثقة، وسألقاك في الغد عند تقاطع **سانت برايد**..

واختفى الغرباء بسرعة بينما عاد "رتشارد" ورجاله إلى الخان..

***

- 16 -
تقاطع سانت براید

يقع تقاطع **سانت براید** بين طريقين.

وصل "رتشارد" إلى هناك في نحو السابعة من الصباح، ولم يطل انتظاره، فقد هبط من الغابة المقدسة نبيل في زي مدرع براق بنم عن الثراء يتبعه عدد من الفرسان...

توقفوا، وأقبل النبيل وحده.. وقف "رتشارد" وذهب للقاء سجينه.

- إني أشكرك يا سيدي اللورد لقدومك في الموعد.

فسأله اللورد:

- أأنت هنا وحدك أيها الشاب!

- كلا، فالأشجار في كل ركن من التقاطع تعج برجالي.

قال اللورد:

- أنت حكيم، ما اسمك؟

- "شيلتون"..

- وأنا اللورد "فوكسام"..

قال "رتشارد":

- إذن فأنت سجيني يا سيدي اللورد وعليك فدية لأطلق سراحك، ولا أريد سوى "جوانا سيدلي" ربيبتك فلو زوجتيها أطلقت سراحك وسراح رجالك جميعاً..

قال اللورد "فوكسام":

- لكن، ألست أنت ربيب السير "دانييل برلكلي"..؟

- بلى، ودعني أحكي لك الحكاية..!

***

أنصت اللورد "فوكسام" للحكاية وفي النهاية قال:

- مستر "شيلتون" لقد صادفك سوء الحظ وإنك لمحظوظ، إنك لن تظفر بأراضيك مادام السير "دانييل" وحزبه أقوياء، أما بالنسبة لربيبتي "جوانا" فإنني وعدت يتزوجها لرجل نبيل يدعي "هاملي"..

قال "رتشارد":

- أجل يا سيدي اللورد كما وعد السير "دانييل" أن يزوجها من اللورد "شوربي"..

قال اللورد "فوكسام":

- هذا حق، لكنني سجينك والفتاة الآن في قبضة السير "دانييل"، وإنني سأهبها لك لو ساعدتني على أطلاق سراحها وحينئذ تتزوجها..

- انحنى "رتشارد" على ركبتيه أمام اللورد "فوكسام"، لكن اللورد أنهضه وقبله كأنه ولده..

قال:

- هلم بنا، إن كنت ستتزوج "جوانا" يجب أن تكون أصدقاء..!

***

- 17 -
السفينة المسروقة..

تم إخطار السير "دانييل" بمعركة الشاطئ، فشدد الحراسة على القلعة والحديقة ووضع الفرسان في كل الأزقة القريبة من القلعة لكي يوافوه بما يستجد من تحركات. وفي ساحة القصر كان الفرسان بانتظار أوامره للركوب..

بدا الآن مستحيلاً إنقاذ "جوانا" عن طريق البر وفجأة وأتت "رتشارد" فكرة، فسأل الخارج على القانون:

- هل يمكنك أن تسرق سفينة لي؟
- لماذا؟ نعم، سأحاول..

وسرعان ما كان الاثنان في الميناء. كان ميناء كبيراً بين التلال الرملية، وحوله أكواخ ومنازل صغيرة كثيرة للفقراء ولقد دفعت الريح العنيفة التي استمرت لأسابيع، السفن إلى الميناء.. رقدت معظمها على الماء، وتم سحب الباقي إلى الشاطئ.. كانت السماء لا تزال ملبدة بالغيوم ودفعت الريح الجليد إلى الطريق ولم تكن ثمة علامات تنذر بتحسن حالة الطقس.

كثير من السفن كان خاويا وبدون حراسة، لأن البحارة قد ذهبوا إلى الشاطئ.. راح الخارج على القانون يعاين السفن على حين كان "رتشارد" يجلس على الرمال مفكراً في وعد اللورد "فوكسام"، شعر بلمسة على كتفه، كان الخارج على القانون يلفت نظره في سفينة صغيرة منفصلة عن بقية السفن.

لقد تركزت حزمة من الضوء على السفينة لمدة دقيقة، وكان رجلان يصعدان قارباً إلى جوارها.

قال الخارج على القانون:

- هناك سفينتك الليلة..

خرج القارب مبتعدا عن السفينة واتجه صوب الشاطئ، فاستدار الخارج على القانون إلى رجل يقف بقربه على الشاطئ وسأله:

- ما اسم هذه السفينة؟

- "الأمل العظيم".. واسم ربانها: القبطان "أربلاستر" وهو في القارب..

شكر الخارج على القانون الرجل وتحرك قدماً إلى الشاطئ حيث كان القارب قادماً وانتظر هناك، **وما كاد القارب يقترب حتى راح يصيح:**

- مرحي..! أيها الصديق "أربلاستر" أنني مسرور بلقائك ثانية أيها الصديق.. وهل هذه هي "الأمل العظيم"؟ مرحي.. إنني أميز السفينة بين ألف سفينة أنها سفينة رائعة.. هل يا صديقي لتشرب كأسا معي. لقد أصبحت أنا ثريا وغادرت البحر.. هلم اشرب مع زميل بحر قديم..

كان للقبطان "أربلاستر" وجه طويل أسمر ، وثمة سكين حول عنقه، كان مندهشاً بوضوح ولا يأمن لخارج على القانون. لكن بعد مدة بدأت شكوكه في التلاشي: تناول يده وأخذ يد الرجل..

وقال:

- لا، إنني لا أذكرك لكن لا يهم، إنني سأشرب مع أي إنسان، وكذلك رجلي "توم"..

قادهم الخارج على القانون إلى خان وجلسوا..وقال:

- الآن هنا كل ما يلزم، نار مشتعلة، كأس نبيذ حين يصبح الطقس رديئاً في الخارج، أتمنى الحظ السعيد لـ"لأمل العظيم"..!

قال القبطان:

- أجل، في مثل هذا الطقس يحسن أن نكون على الشاطئ.. إنك تحسن الحديث، رغم أنني لم أستطع أن أتذكر اسمك، حظ سعيد لـ"لأمل العظيم"..!

وشرب ثم أعاد ملء كأسه..

استدار الخارج على القانون إلى "رتشارد".. قال:

- يا صديقي "رتشارد"، لديك عمل لتؤديه، أليس كذلك؟
- حسن، اذهب وأنجزه.. أنني هنا مع صديقين قديمين وسننتظر إلى أن تعود..

نهض "رتشارد" وأسرع بالذهاب، أرسل إلى اللورد "فوكسهام" بأنه حين يقبل المساء ستكون سفينة جاهزة، ثم اصطحب اثنين من الخارجيين على القانون وعاد إلى الميناء، وركب قارباً وجدف بقوة إلى "الأمل العظيم"..

وصلوا إلى السفينة دون أن يراهم أحد، كانت سفينة رائعة ومتينة.. وخاوية إلا من كلب... أضاءوا مصباحاً ليعينهم على رؤية السفينة من الشاطئ..

طل أحد الرجلين في القارب مستعداً بالقوس والسهام ليبعد القادمين.. أما الآخر فغادر القارب وصعد إلى السفينة بانتظار "رتشارد".

قال "رتشارد" لرجل على السفينة:

- حسن يا "جاك"، عليك بأن تحسن المراقبة..!
- سوف أفعل، لكن انظر كيف السماء سوداء.

كان ذلك حقاً، فالظلام يتجمع فوق البحر، وتنذر السحب العظيمة بعاصفة، واندفعت الأمواج ثائرة، الموجة أثر الأخرى وسقط الجليد وأنشدت الريح أنشودة حزينة فوق المياه..

وصل "رتشارد" إلى الأرض ووجد هناك اثنى عشر من الخارجين على القانون.. أخبرهم بأن يذهبوا إلى السفينة، ثم واصل إلى أن لقى اللورد "فوكسهام"..

قال له:

- يا سيدي اللورد أن السير "دانييل" قد وضع الفرسان حول القلعة بحيث يستحيل الوصول عن طريق البر. فإذا تبعنا بطريق البحر تكون في خطر الطقس الرديء، لكن لدينا فرصة أفضل بأن نعمل على تهريب "جوانا". نحن سنذهب الآن إلى الخارج على القانون..

كان الخارج على القانون في الخان جالساً مع "أربلاستر" وزميله يشربون وينشدون أغنية البحر..

تطلع "رتشارد" حول الحجرة، كان الخشب ملقي في المدفأة والحجرة مليئة بالدخان حتى ليصعب رؤية ما بالأركان، لكن كان من الواضح أنه يوجد الكثير من الخارجين على القانون.

ذهب "رتشارد" إلى المائدة وقال:

- أريد أن أحدثك في الخارج يا مستر "أربلاستر"، وكان يمسك بقطعة ذهبية، **وتابع يقول:**

- هذا ما أريد التحدث بشأنه..

قال "أربلاستر":

- مرحي أيها الصبي، إنني قادم، سأعود توا أيها الأصدقاء..

ووضع ذراعه فلي ذراع "رتشارد" وخرجا من الخان..

وبمجرد خروج "أربلاستر" من الخان أحاطت به السواعد القوية فشلوا حركته وحبسوه في كوخ قريب من الخان.. وتم معاملة رفيقه "توم" بالمثل..

***

انطلق الخارجون على القانون ورجال اللورد "فوكسهام" إلى القوارب وقادوها إلى السفينة، سمعوا صيحة غاضبة من الشاطئ.. لقد اكتشف البحارة ما حدث. لكن كان ذلك بعد فوات الأوان..

على السفينة أربعون رجلاً ثمانية منهم معتادون على البحر، فأوكل إليهم قيادة السفينة..

أصدر الخارج على القانون الأوامر.. فارتفع الشراع وتحركت السفينة.. ساد ظلام دامس.. كانت السفينة تقفز وتتسلق على الأمواج..

ظل كثير من الرجال يصلون، ومرض البعض، وقاد الخارج على القانون السفينة وهو يغني وقد غلب عليه السكر، أخيراً اندفعت السفينة في موج هادئ واستقرت إلى جوار رصيف صخري حشن!

***

- 18 -
الخطـــر مـــن البحـــر

لم يكن الرصيف الصخري بعيداً عن المنزل الذي سجنت فيه "جوانا"، كان على "رتشارد" أن ينقل الرجال إلى الشاطئ وحسب، ويرسلهم إلى المنزل، ويقتحم الباب ويحمل "جوانا" بعيداً.. لكن لم يكن سهلاً نقل الرجال إلى الشاطئ، فمعظمهم كان مريضاً ويعاني من البرد الشديد..

حين وصلت السفينة إلى الشاطئ، اندفع الرجال في هرج ومرج، وأخيراً أمكن تنظيمهم وانطلق "رتشارد" مع قلة مختارة منهم إلى الأمام...

كان الظلام حالكاً على الشاطئ، وبينما كان "رتشارد" يتقدم سمع صوت سنابك الخيل فتوقف وتقدم وحده للأمام واستطاع أن يرى أشباح رجال وخيل تتحرك، ربما كان رجال السير "دانييل" يراقبون. لو كان الأمر كذلك فإنه ورجاله في خطر المرسي كبير فالبحر من خلفهم والرجال يزدحمون في مكان على الشاطئ..

أطلق "رتشارد" صفارة بصوت خفيض، إنها متفق عليها، فانطلق وابل من السهام ليصيب العديد من الناس في مكان المرسى.. وانطلقت صيحات رعب وألم.. وأصيب اللورد فحملوه إلى السفينة..

قاتل "رتشارد" مع قلة من الرجال العدو، لكن رجاله الآخريين كانوا في فوضى.. **ومن بينهم صاح واحد:**

- لقد ضعنا..! فهيا إلى السفينة يا رجال. وأنفدوا بجلدكم..!

واندفعوا إلى السفينة، مديرين ظهورهم للعدو، فأصيب الكثيرون، أخيراً تحركت السفينة مبتعدة عن الشاطئ، لكن لم يزل الرجال في فوضى، راحوا

يلعنون قادتهم، وكان الخارج على القانون يقود السفينة، فلكمه أحدهم على فمه **فقال وهو يلعن مبتعداً:**

- قودوا السفينة بأنفسكم..!

اندلعت موجة تتبعها موجات، وتراقصت السفينة وكادت تغوص في المياه، بدت كالحيوان الجريح الذي يصارع الموت.

أغمى على ستة أو سبعة، بينما مضى الآخرون يصرخون مستنجدين بالخارج على القانون يتوسلون إليه أن يعود إلى قيادة السفينة، **فعاد وسأل "رتشارد":**

- هل تعلم مقدار ثقل السفينة؟ إن الماس سيغمرها وستغوص ويغرق الجميع..

قال "رتشارد":

- معنى ذلك أنه لا أمل..

- كلا يا سيدي، لكنني سأبذل ما بوسعي..

هبط "رتشارد" إلى المكان الذي يرقد فيه اللورد "فوكسهام" .. كان على فراش ومعطف من الفراء ملقي عليه، وفوق رأسه مصباح يتوهج، وعلى ضوء المصباح استطاع "رتشارد" أن يلمح الوجه الشاحب والعينين الغائرتين..

قال اللورد "فوكسهام":

- لقد أصبت إصابة بالغة، فانضم إلى صفي يا "شيلتون"، عليك أن تصبح صديقي الصدوق حين أموت.. وعليك أن تنفذ ما أقوم به من عمل.. إنني أموت في وقت خطر وانجلترا تحتاج موتي لأولئك الذين، يثقون بي، إليك هذا الخاتم في أصبعي، خذه، إنه سيجعل "هاملي" بطبعك وسيرد إليك "جوانا" حين تسنح الفرصة، فهل تطيعني؟

أجاب "رتشارد":

- أجل، فما هي الأوامر يا سيدي اللورد؟

- لقد جئت هنا لمراقبة أولئك الرجال في **شوربي** بينما يجهز صديقي "رتشارد جلوشستر" جيشاً ليهاجمهم لقد كتبت مذكرات عن جنود السير "دانييل" واللورد "شوربي" لأعطيها اللورد "جلوشستر" في تقاطع **برايد يوم** الأحد، فعليك أن تذهب في الموعد وتسلمها له...

- سأفعل..

- سيعطيك اللورد "جلوشستر" تعليمات أخرى، ولو أنك أطعته لابتسم لك الحظ، الآن قرب المصباح وسأكتب مذكرة..

- حرر اللورد "فوكسهام" مذكرتين للسير "جون هاملي" واللورد "جلوشستر"، ثم بدأت تخور قواه..

- تناول "رتشارد" الأوراق وصعد إلى سطح السفينة كان الساحل قد اقترب بالكهوف الصخرية والخلجان وقمم تلال **تونستال**.. هبطت الريح وهدأ البحر، لكن لا تزال السفينة في الماء، وعلى الدفة يسيطر الخارج على القانون.

سأله "رتشارد":

- هل سنصل إلى الشاطئ؟

- أجل لو لم نغرق قبل بلوغه..

كان "جرينشيف" ورجال كثيرون يجهزون قطع الخشب ليتعلقوا بها في حالة غرق السفينة، انطلق "رتشارد" لمساعدتهم، تطلع وإذا به يرى أنهم قريبون من الشاطئ حيث يوجد منزل، وصلت السفينة إلى الشاطئ بسلام.

عاد "رتشارد" إلى اللورد "فوكسهام" وقال له:

- لا تخف يا سيدي اللورد فقد وصلنا بالسلامة إلى الشاطئ وحين ينتهي المد سننزل إلى الشاطئ.

بعد ساعة كانوا قادرين على مبارحة السفينة، حاملين سيدهم الجريح، ظل "رتشارد" مع الاثنى عشر رجلاً، وهم الذين ظلوا تحت قيادته، فالبعض كانوا جرحى والكل كانوا غاضبين لهزيمتهم..

وكانوا يعانون الجوع والبرد وينظرون شزرا إلى قادتهم.. ها هو الجليد يتساقط والعالم كله يكسوه البياض..

وصل "رتشارد" ورجاله إلى مكان يتفرع إلى ممرات عديدة.

عرف الخارج على القانون المكان وبدا عليه السرور..

- إن بيتي قريب من هنا، الآن يا مستر "رتشارد" إنك ضيفي إن لن تكن تتكبر على أمثالي وسأقدم لك قدحاً من شراب دافئ وناراً للتدفئة..

قال "رتشارد":

- هيا بنا يا صديقي.. سأكون سعيداً بشرابك ونار التدفئة..!

***

- 19 -
بيت الخارج على القانون

استدار الخارج على القانون إلى أحد الأركان وسار لبعض الوقت، ثم وصل إلى مكان أجوف صغير، على حافته شجرة عظيمة واقعة .. نزع بعض الأغصان وهبط إلى الأرض..

لقد سقطت الشجرة في عاصفة، وبقى منها الجذور الضخمة فاتخذ من الفتحة تحت الشجرة بيتا، ومن الجذور سقفاً لبيته..

كان أحد أركان البيت أسود بفعل النار، أما الركن الآخر ففيه خزانة كبيرة مربوطة بالحديد، سرعان ما أشعل النار فأصبح المكان مريحاً، مد يديه يتدفأ..

قال:

- هنا، بيت الخارج على القانون، كنت دائم الترحال منذ كان عمري أربعة عشر عاماً، كنت بانجلترا وفرنسا وأسبانيا، لكن مكاني هنا يا مستر "شيلتون" هنا أجلس إلى جوار النار.. هذا هو المكان الذي أعود إليه والذي أحب أن أموت فيه..

قال "رتشارد":

- إنه ركن دافئ وممتع..

قال الرجل:

- نعم، وآمل آلا يعثر عليه إنسان.

ثم قال:

- يا مستر "شيلتون"، إنك محظوظ للغاية الليلة، وإنني أخشى أن تضيع منك الفتاة، فهل أنا على حق؟!

- نعم..

- أظن أنك تسرف في خدمة الآخرين وأهدافهم فأنت في خدمة "إيليس داكو يرث" وهو غير مهتم بـ"جوانا"، ففرضه أن يصل السير "دانييل"، وأنت تخدم اللورد "فوكسهام" وله أغراض أخرى، امض إلى هدفك الرئيسي يا "رتشارد" الطيب، اذهب من فورك إلى الفتاة، غازلها فلا تنساك وحين تحين الفرصة الملائمة خذها على حصانك..

قال "رتشارد":

- أجل يا عزيزي، لكن دون شك فهي في بيت السير "دانييل"..
- أذن فلنذهب إلى هناك..

وفتح الخزانة الكبيرة واستخرج ثوب راهب وبعض الألوان وبدأ يغير من مظهر وجه "رتشارد"..

قال:

- الآن سأفعل المثل وستكون راهبين رائعين، وسنذهب إلى قلعة السير "دانييل" وهناك يرحبون بنا بلا شك..

ثم في النهاية استخرج من الخزانة بعض السهام السوداء.

فسأله "رتشارد":

- لماذا نأخذ هذه..؟ إننا لم نأخذ أقواسنا..

- حسن، إن السهام علامة على جماعتنا، فإن أفلحنا فذلك سيكون تشريفاً لجماعتنا..

قال رتشارد:

- لدي بعض الاوراق هنا، ولا أرغب في اصطحابها معي، فأين أخبئها..؟

- سأخرج، وتستطيع إخفائها أينما تريد..

وتركه وحيداً، فأخفاها في الأرض لكنه أخفى بينها خطاب السير "دانييل" إلى اللورد "وينسلديل" الذي عثر به داخل ثياب "ثروجمورتون"، ثم ذهب للحاق بصاحبه فتبادلا نظرة وضحكاً.

قال صاحبه:

- بودي لو أرى وجهي، هناك كثير من رجال السير "دانييل" يعرفونني، فإن تعرفوا على يسارعون بشنقي..

وغادرا في الطريق إلى **شوربي**..

***

- 20 -
فـي قلعـــة العـــدو..

كانت قلعة السير "دانييل" غاصة بالناس وامتلأت الساحة بالجنود، وفي المطبخ انشغل الطهاة بإعداد الأطعمة، وفي القاعة كان الضيوف يعزفون الموسيقى وكان الخدم المرتدون للثياب ما بين الحمراء والزرقاء هنا وهناك، وجلس الراهبان اللذان وصلا للتو للتدفئة على النار المستعرة وسط جمهور جالس يضحك ويتحدث، كان أصغر الراهبين هادئاً للغاية وصموتاً طوال الوقت يراقب الناس الداخلين والخارجين، ولم يكن ذلك الراهب سوى "رتشارد شيلتون".

أخيراً شاهد "رتشارد" سيدتين ترتديان معطفي فراء، تتبعهما خادمتان وأربعة جنود وما أن دخل الاثنتان إلى القلعة حتى تبعهما "رتشارد"، كانت تصعدان السلم بصحبة الخادمتين بينما تركهما الجنود.

كان الوقت مساء والسلم مظلماً وراحت أقصر السيدتين ترشق "رتشارد" بنظراتها من خلف ظهرها..خفض "رتشارد" رأسه كيلا تلمح وجهه..

حين بلغت السيدتان أعلى السلم انفصلت أعلى السلم انفصلت صغرهما عن الأخرى التي استدارت إلى اليمين مع الخادمتين، انتظر "رتشارد" وهو لا يدري أي السيدتين يتبع، حينئذ نزلنا يد على كتفه فاستدار جاهزا لقتال من أزعجه، لكنه خجل للغابة حين فوجئ، بأن ذلك الشخص لم يكن سوى السيدة الشابة القصيرة.. كانت تنتقض خوفاً محتبسة الأنفاس..

قال "رتشارد":

- سيدتي العزيزة، معذرة، فإنني لم أتصور أن من يعترضني سيدة بديعة مثلك..

نظرت إليه الفتاة وحلت الدهشة محل الرعب.

قال "رتشارد":

- سيدتي العزيزة، اسمحي لي أن أقبل يدك لتغفري لي، وسأدعك تذهبين..

- إنك راهب غريب الأطوار، ماذا تفعل هنا؟ لماذا تتبعنا مثل اللص؟

- سيدتي العزيزة كوني واثقة من شيء واحد. إنني لست لصاً..!

- هل أتيت كجاسوس..؟

- لست جاسوساً بل محباً..!

- صمتاً! فلن نستطيع الحديث هنا..

وأخذت بيدي إلى حجرة وأجلستني على كرسي.. قائلة:

- أجلس هنا، إنك في قبضتي ولي أن أفعل بك ما أشاء، أنني الليدي "أوليكيا ريزينجهام" وأنت لا تعرفني.. فلو كنت تدرى ذلك لضربتني بالعصا.

ثم هرعت إلى خارج الحجرة..

اندهش "رتشارد" وتساءل:

- أضربها بالعصا..؟

وسرعان ما تذكرت تلك الأمسية في الغابة و"جون" على ركبتيه أمامه، وأدرك لتوه المخاطر المحيطة به هنا، سمع شخصاً يتحرك في الحجرة المجاورة.. وانفتح الباب ودخلت "جوانا سيدتي" وهي ترتدي ثوبا حريرياً رائعاً وتحمل مصباحاً في يدها.

كان شعرها ملموماً على رأسها كالتاج، وتهادت كالملكة، رفعت المصباح عالياً ونظرت إلى "رتشارد"..

سألته:

- ما الذي تريده أيها الراهب..؟

ثم أنزلت المصباح..

قال "رتشارد":

- لقد ذكرت لي يا "جوانا" أنك تحبينني وكنت مغفلاً لأنني صدقتك..

وصاحت وهي تأخذه بين ذراعيها وتغمره بالقبلات:

- "رتشارد"، أوه، لقد لصق بي بعض الأصباغ منك، وهذا يمكن إزالتها، لكن هناك أشياء لا يمكن أزالتها، وذلك هو زواجي من اللورد "شوربي"!

- هل تقرر ذلك!

- أجل يا "رتشارد"، سنتزوج غداً عند الظهر في الكنيسة وسينتهي "جون" أسوأ نهاية ولا جدوى البكاء، ولقد صليت كثيراً، لكن السموات لم تستجب لصلواتي، ولو لم توفق في إخراجي من القلعة قبل صباح الغد فعلينا أن نتبادل قبلة ثم نفترق. حيث توجد الحياة يوجد الأمل ولن يفارقني الأمل.

- حين كنت صبياً مثلي في الغابة أحببتك، والآن وأنا أراك أجمل فتاة في انجلترا، فهل تعتقدين أنني أدير ظهري لك؟

- إن كان البحر العميق أمامك فإنني سأبحر خلاله، ولو امتلأ طريقك بالسباع فسأجعلها تفر كالجرذان..!!

جلسا وتحدثا حديثاً مليئاً بالحب والشجن..

ثم انفتح الباب وظهرت الليدي "أوليكيا" وأصبعها على شفتيها..

قالت:

- لا ترفعا صوتيكما..! ألا تستطيعان الحديث بهدوء..؟ ألن تشكريني..

فأسرعت "جوانا" إليها تقبلها.. فقالت لـ"رتشارد":

- وأنت يا سيدي ماذا تقدم لي..؟

هرع "رتشارد" إليها يقبل يدها.. فقالت:

- والآن سأرسلك أيها الشاب بعيداً.. فإننا سنترك العشاء..

قال "رتشارد":

- إذن فلأختبئ خلف الستار..

سمعوا صوت جرس يستدعي السيدتين إلى العشاء..

اختبأ "رتشارد" خلف الستار وظل في مكمنه فترة طويلة إلى أن سمع صوت شخص يسير ثم انفتح الباب قليلاً وتقدم شخص أسود البشرة وقد دس وجهه أولاً من فتحة الباب، ثم انطلق إلى الداخل ينظر إلى كل محتويات الحجرة، ثم ركع على ركبتيه والتقط شيئاً من الأرض. كان قطعة من ثيابه هو..

فقال في نفسه:

- فلأزح الستار جانباً وأهاجم ذلك الفضولي وانتزعها منه؟!

وبينما هو يفكر سمع صوت الرجل يغني وهو سكران:

- ماذا تفعلون هنا يا رجالي المرحون .. بين أشجار الغابة..؟

إنه صوت الخارج على القانون..! استبد الغضب بـ"رتشارد"، ومالبث الرجل الجاسوس أن بارح الحجرة. ما الذي على "رتشارد" أن يفعله؟ إن أغضب "رتشارد" الخارج على القانون فقد يرتكب حماقة..

قرر "رتشارد" أن يخرج من مكمنه، وقف على باب الحجرة ويده مرفوعة، اقترب الخارج على القانون. **قال "رتشارد":**

- أيها الأحمق..! إننا قد نموت بسبب أغرامك في الشراب!

ضحك الخارج على القانون..

وهنا سمع "رتشارد" صوت حركة وراء الستار فقفز نحو الصوت وجذب الستار وسرعان ما كان في عراك مع الجاسوس.. راحا يتدحرجان ثم سحب "رتشارد" سكينه وطعن الرجل فشهق وتوقف عن التنفس..

- 21 -
الجاسـوس القتـيل

نهض "رتشارد" وأنصب .. **قال أخيراً:**

- رائع، أنهم لم يسمعونا، ماذا أنا فاعل بذلك الجاسوس..!

بحث في ملابس الجاسوس ووجد رسالة موجهة من اللورد "شوربي" إلى اللورد "ونسلديل"، فتح الرسالة وقرأها. كانت قصيرة ولكنها تتضمن تحولا من اللورد "شوربي" إلى الحزب الآخر، أي خيانة لأصدقائه..

احتفظ "رتشارد" بالرسالة وكتب على قصاصة من الورق:

سيدي اللورد "شوربي"، لقد قرأت ما كتبته وتعرف لماذا قتل رجلك ودعني أنصحك، لا تتزوج..

التوقيع: جون المنتقم العادل..

وضع القصاصة على جثة الجاسوس ووضع الخارج على القانون السهم على الورقة، ثم غادر الاثنان الحجرة..

لكن ما لبث "رتشارد" أن عاد إلى مكمنه خلف الستارة، مر الوقت بطيئاً وبدأت النيران في الحجرة تخبو وانطفأ المصباح، ما زال صوت الجالسين للعشاء يصل إلى أذنيه.. ثم سمع صوت خطوات وأصوات على السلالم، ودخل ضيوف السير "دانييل" إلى الحجرة.. شاهد الضيوف جثة الجاسوس وراحوا يصرخون. وعلى صوت صراخهم أقبل الناس يجرون من كل الجهات. ثم دخل سير "دانييل" يتبعه اللورد "شوربي"..

قال السير "دانييل":

- سيدي، لقد أخبرتك عن السهم الأسود، والآن سوف تراه..

قال اللورد:

- حقاً، إن هذا الرجل القتيل من رجالي، وكنت أتمنى المزيد من أمثاله، كان شجاعاً ومؤتمن على الأسرار..

تناول السير "دانييل" القصاصة والسهم وراح يقرأ الورقة في صمت، ثم **ناولها للورد "شوربي" وهو يقول:**

- هذه هي الضغينة التي تلاحقنا، نحن كالأشجار الجاهزة للقطع.. لكن خبرني يا سيدي اللورد ما الذي كتبته في الرسالة..؟

بان الرعب في وجه اللورد "شوربي".. قال:

- آه، لقد فقدت الرسالة حقيقة، هذا مهم. ولو استطعت العثور بمن استولى عليها لشنقته.. فلنحرس كل الأبواب، لا يجب أن أدع اللص يفلت..

ثم حمل الجثة إلى الكنيسة.. ومر وقت وفي النهاية استطاعت الفتاتان أن تخرجا "رتشارد" من مكمنه فحكى لهما ما حدث..

سألته "جوانا":

- ماذا نستطيع أن نفعل؟ أنني سأتزوج في الصباح..

فأجابها:

- آه، لو أستطيع أن أفارق القلعة لنصف ساعة فليمكنني إيقاف الزواج، سأحاول، ولن يهتموا بذهاب الراهب..

سألته "جوانا":

- ماذا تنوي فعله.
- ما اسم الجاسوس..؟
- "رونز"..

- إذن، فإنني خارج، ولو أوقفني أحد فسأدعي أنني ذاهب إلى الكنيسة للصلاة من أجل "رونز"..

قالت "جوانا":

- اذهب إذن، فلست في خطر حقيقي أن ذهبت

وصل "رتشارد" إلى البوابة وكان ثمة جندي يحرسها..

- السلام عليك، إنني ذاهب للصلاة لأجل ذلك المسكين "رونز"..

قال الجندي:

- لا تذهب وحدك يا أبتاه..

وصحبه إلى الضابط الذي أمر ثلاثه جنود بمصاحبته إلى الكنيسة... وقال لهم:

- ثم عودوا به إلى السير "أوليفر"..

ثم انفتحت البوابة وأخذ جندي بذراع "رتشارد" بينما تقدمهما جنديان آخران.. اخترقوا الحديقة، واقتربوا من الكنيسة، في وسط الكنيسة كانت جثة الجاسوس مسجاة وقس يصلي بين القساوسة الآخرين، ثم أقبل السير "أوليفر" ليلقي "رتشارد" والجنود..

قال السير "أوليفر":

- من أنت أيها الأب..؟ ومن أمرك بالانضمام إلينا هنا؟

فأشار له "رتشارد" بأن يبعد عنه الحراس وقال:

- لا أستطيع خداعك يا سيدي وحياتي بين يديك..

شحب وجه السير "أوليفر" وخرس لسانه.. وحين استطاع الحديث قال:

- لماذا جئت يا "رتشارد"؟

- لقد أتيت بلا فائدة، لكن لأجل خاطر المحبة التي بيننا لن أسلمك لأعدائك، ستمكث طوال الليل بجانبي في الكنيسة إلى أن يتم زواج اللورد "شوربي" ويذهب الجميع بسلام.. فإذا انتهى الأمر على ما يرام ولا تنوي شراً فقد تذهب بأمان إلى حال سبيلك.

وألقى إلى الجنود ببعض الكلمات ثم أخذ "رتشارد" من يده وأجلسه في مقعد قريب من مقعده..

ها هو في المصيدة.. عليه أن يقضي الليلة في الضوء الشاحب وعلى مرأى من جثة الجاسوس الذي قتله.. وفي الصباح يشهد زواج الفتاة التي يحبها من رجل آخر..!

***

- 22 -
فـي الكنيســة

استمرت الصلوات في الكنيسة طيلة الليل لأجل روح الجاسوس "رونز"، وهو مسجى هناك ويداه معقودتان على صدره وعيناه معلقتان إلى السقف. وإلى جواره يجلس قاتله منتظراً الصباح، **قال السير "أوليفر" لـ"رتشارد":**

- "رتشارد"، إن كنت تنوي بي شرا تسوء العاقبة، فإنني لم أؤذيك ولا لوم عليَّ، فقد تم استخدامي كوسيلة لأقود أباك إلى الموت لكنني لم أقتله..

- إن هذا غريب حقاً، فإنني سجينك وقاضيك في آن واحد، فامض في صلاتك فإنني لا أريد صحبتك..

بدأ ضوء الصباح كفاحه ليجلي فلول الظلام عن الكون ويتخلل الحجرة من النوافذ الملونة وليضفي الخجل على ضوء الشموع..

سطع الضوء واندفعت حزمة من أشعة الشمس الوردية إلى الجدران وتخلت السحب الرمادية عن حملها من الجليد وأشرق اليوم بديعاً براقاً.

أقبلت ثلة من الضباط وحملوا الميت إلى الخارج وأزيلت الدماء على الأرض واستعد القساوسة للزفاف، دخل بعض أهالي البلدة وبينهم الخارج على القانون في ثوب الراهب وأشار إلى "رتشارد" إشارة خفية.

وإذا بيد توضع على ذراع "رتشارد" فالتفت ورأى الخارج على القانون بجانبه يتظاهر بالصلاة، نهض السير "أوليفر" من مكانه وسار ناحية الجنود.. كان يعرف الخارج على القانون وها هو الرجل سجين في الكنيسة..

هتف "رتشارد" قائلاً له:

- لا تتحرك، نحن في خطر داهم وأنت الملوم...

- ألم تسمع شيئاً من "إيليس"؟

صاح "رتشارد":

- إيليس! هل عاد؟

- أجل! عاد ليلة أمس، ولقد غضب مني كثيراً وسيجيء لإيقاف هذا الزواج..

- لو فضل فسنكون قد لقينا حتفنا، فأفقد أنا حبي وحياتي..

صاح الرجل:

- ها..! إنني ذاهب..

وضع "رتشارد" يده على كتفه:

- أيها الصديق، اجلس، ألم تر حين حاولت القيام ؟أن الجنود تأهبوا للقبض عليك؟ يجب أن تجلس، ففرصتنا الوحيدة أن نهدأ، إننا لا نعلم ما هي خطة "داكويرث"..!

سمعوا الموسيقى في الخارج، اقتربت وتصاعدت، وبدأت الأجراس في البرج تقرع، وتدفقت أفواج الناس على الكنيسة..

انفتح الباب الغربي على سعته، وغمر الكنيسة الضوء واندفع الهواء البارد في قوة.. وها هي حفلة الزفاف قد دنت.

أفسح رجال اللورد "شوربي" الطريق يدفعون الناس إلى الخلف بحرابهم..

ثم أقبل العروسان يسيران في الممشى وهما يرتديان الثياب الحريرية..

في البداية أقبلت "جوانا" بوجه شاحب كالجليد معلقة في ذراع السير "دانييل"، وخلفها الليدي "أوليكيا ريزنجهام"، ثم جاء اللورد "شوربي"، وقد خلع قبعته وظهر رأسه الأصلع..

وحانت ساعة "إيليس داكويرث"، رأى "رتشارد" حركة في الزحام، والناس تتدافع إلى الخلف، والأعين والأذرع ترتفع، رأى "رتشارد" ثلاثة أو أربعة رجال يحملون الأقواس في خلفية الكنيسة وقد أطلقوا أربعة سهام.

امتلأت الكنيسة بالصيحات وتوقفت الموسيقى لكن استمرت الأجراس لعدة دقائق. ثم توقفت..

كان اللورد "شوربي" ممدداً على الأرض ميتاً وقد اخترق جسده سهمان أسودان و"جوانا" مغشى عليها.. وقد وقف سير "دانييل" وقد ملأه الغضب وقد استقر سهم أسود في ذراعه الأيسر ووجهه ينزف من السهم الآخر الذي أصابه..

نهض السير "أوليفر" على قدميه ونادى السير "دانييل" مشيراً إلى "رتشارد":

- ها هو "رتشارد شيلتون"، فاقبض عليه..

صاح السير "دانييل" بالجنود:

- خذوه..!

مسح السير "دانييل" الدم، ونظر إلى سجينه وقال:

- آه، إنك الآن في قبضتي، ومقابل كل قطرة من دمي صيحة ألم منك، خذوه إلى جناحي!

صاح "رتشارد":

- لا يمكنك سجني في الكنيسة فهي مكان مقدس

قال رجل طويل يرتدي ثوباً رائعاً:

- لا يوجد مكان مقدس وقعت فيه جريمة..

قال "رتشارد":

- أنا لم أقتل أحد، بل أحب السيدة وليس هذا ذنباً!

بدأ كثير من الناس يميلون إلى صف "رتشارد"، ثم أومأ السير "أوليفر" إلى الخارج على القانون فانتزعه الجنود وصار مع "رتشارد" جنباً إلى جنب...

قال الطويل:

- انظروا إن كانا مسلحين..

لم يكن بحوزه "رتشارد" سوى السكين وعليها دماء "رونز"، ومع الخارج على القانون وجدوا السهام السوداء..

سأل الطويل "رتشارد":

- ما رأيك الآن؟

- يا سيدي أنني أراك رجلاً ذا مكانة سامية، ومن وجهك ألمح أنك محب للعدالة وأنني أسلمك نفسي كسجين، إن السير "دانييل" هو قاتل أبي ومغتصب أرضي. وأنا سجينك ولست سجينه هو وآمل أن تسمعني وإن كنت قد اقترفت جريمة اقتلني..

صاح السير "دانييل":

- سيدي اللورد "ريزنجهام" لا تستمع إليه! إن سكينه ملوثة بالدماء..

فقال الطويل:

- اسمح لي بأن أفصل في الأمر، فغضبك العاصف سيجعلني أثق في صدق حديثه..

فتحت "جوانا" عينيها فركعت على ركبتيها وقالت:

- أيها اللورد "ريزنجهام" اسمعني..! إن ذلك الرجل السير "دانييل" يستبقيني بالقوة بعيداً عن أهلي ومنذ أن اختطفتني لم أحظ بالعطف أو بالراحة

إلا من "رتشارد شيلتون" الذي حارب من أجل سيده السير "دانييل" السهم الأسود أما حين حاول سيده قلته لاذ بالفرار ليلاً، فإلى من يلجأ..!

أنصت اللورد "ريزنجهام" إليها في صمت، ثم مد يده إلى "جوانا" وهو يقول:

- أيها السير دانييل إن الأمر خطير وسأفصل فيه بنفسي، ولتأخذ العدالة مجراها..!

أشار اللورد إلى رجاله فأقبلوا وصحبوا "رتشارد" والخارج على القانون بعيداً..

رفعت "جوانا" يديها إلى رتشارد وقالت:

- لا تيأس..! لن أحيد عن حبك..!

فابتسم الحاضرون...!

***

- 23 -
اللـــورد ريزنجهـــام..

اقتيد "رتشارد" في ساعة متأخرة من بعد الظهر إلى حجرة علوية حيث جلس اللورد "ريزنجهام" أمام النار يتدفأ..

تطلع إليه اللورد **وقال له**:

- لقد عرفت والدك يا سيد "رتشارد"، كان رجلاً شريفاً، ولهذا السبب كنت التمس لك الرحمة، لكن هناك مشكلة كبرى، إنك منضم إلى القتلة واللصوص، وقيل أنك سرقت سفينة وارتديت ثياب راهب في قلعة عدوك، وتم قتل رجل في نفس المساء وأنك قتلته..

قال "رتشارد":

- لقد قتلته بالفعل، قتلت "بونز" وإليك والدليل ، إنها الرسالة التي كان يحملها..

وناول اللورد الرسالة ففتحها وقرأ ما فيها **وسأله:**

- هل قرأتها..؟

- أجل ..

- إن ذلك يبين خيانة اللورد "شوربي" لأصدقائه وأنه يرغب في الاتصال بالأعداء.. إنني سعيد لأنك أعطيتني الخطاب وسأساعدك. لكن يجب أن احتفظ بالسير "دانييل" في صفي لأنني في حاجة إليه..

قال "رتشارد":

- يا سيدي اللورد قد تظن أنني وقح لأزجي لك النصيحة، لكن لا تثق بالسير "دانييل" فقد غير مواقفه كثيراً، فهلا قرأت هذه الرسالة، أيضاً؟!

وناول اللورد رسالة السير "دانييل" إلى اللورد "ونسلديل"، فلما طالعها اللورد "ريزنجهام" اصطبغ وجهه بالغضب و**سأله:**

- هل قرأت هذه أيضاً..
- أجل.. وهو يعرض ممتلكاتك على اللورد "ونسلديل" ..
- أجل ممتلكاتي، وأشكرك على أعطائي الرسالة وسأطلق سراحك ولكنني سأحتفظ بزميلك..
- أضرع إليك يا سيدي اللورد أن تطلق سراجه، فهو لم يجئ إلى هنا إلا حبا لي..
- إنك تضعني في موقف صعب يا مستر "شيلتون". اذهبا كلاكما إذن ولكن احذرا، فالسير "دانييل" متعطش إلى دمكما..!

***

- 24 -
علـــي بـــابـــا..!

كان الوقت مساء حين غادر الإنسان قصر اللورد "ريزنجهام" من طريق خلفي، توقفا مختبئين في الحديقة ريثما يقرران ما يفعلان.

كان في خطر محقق، فلو رآهما رجل من أتباع السير "دانييل" لطردا وقتلا في الحال..

وعلى مسافة يسيرة شاهدا طاحونة..

فذهبا إليها وتواريا خلف الباب، شحب ضوء النهار وسطع البدر في السماء فبدا الجليد كالفضة فتسللا من الطاحونة

كان من الخطر أن يذهبا عبر البلدة، فالمشوار طويل؛ من الطاحونة إلى الشاطئ فإلى الميناء..

فجأة انفتح باب وتسلط الضوء عليهما فتوقعا وتظاهرا بأنهما يتحدثان، خرج ثلاث رجال من الخان..

قال أحدهم:

- وبذلك فقدت أفضل سفينة في الميناء...

وقال آخر:

- وأنا فقدت خمسة شلنات يا صديقي "أربلاستر"..

فقال الربان:

- أما أنا فقدت كل شيء..

شعر "رتشارد" بالحزن لأجل الربان .. واقترب "أربلاستر" من الراهبين وقال:

- أيها الصديقان هل تعطيان بنسا إلى البحار الذي سرقت منه سفينته...؟ اسألا صديقي "توم" إن لم تصدقاني، لقد حاربت الفرنسيين والآن

فقدت كل شيء، من فضلكما أعطياني بنسا، لم يجرؤ الاثنان على السؤال خشية أن يعرفهما من صوتيهما.

سألهما الربان:

- لماذا لا تتحدثان..؟ أنهما لا يتحدثان يا "توم"، ربما استطعنا أن نطلق لسانيهما..

أمسك "توم" الخارج على القانون بقوة من كتفيه، وسأله:

- أليس لك لسان؟..

فأطاح به الخارج على القانون بلكمة القته على الجليد.. ثم نادى على "رتشارد" أن يتبعه وجرى بأسرع قوته، لكن قبل أن يجري "رتشارد" أحاط به "أربلاستر" و"توم" بعد أن نهض من سقطته..

قال "أربلاستر"

أحضراه إلى داخل الخان فأستطيع رؤية وجهه..

قال "توم":

- فلنرى ما في حوزته من مال..

لم يعثرا سوى بخاتم اللورد "فوكسهام"..

قال "أربلاستر":

- أديراه إلى النور..

ونظر إلى وجه "رتشارد" ثم صاح:

- إنه اللص..! هو الذي سرق سفينتي..! أين سفينتي؟

ناولني حبلاً يا "توم" وسأربطه ثم أضربه علقة لا ينساها..يا "توم" اربط "رتشارد" ربطاً محكماً، ثم ضربه على أذنه ، وعاود ضربه، وراح "رتشارد" يفكر ثم **قال**:

- أنكم يا أصدقائي أغبياء للغاية: إن هناك فرصة عظيمة لتصبحوا أثرياء.. وها أنتم تضيعون الوقت في ضربي، حين أخذت السفينة كنت ذاهباً للعثور على كنز..

سأله "آربلاستر":

- ماذا تعني..؟

- خذوني من هنا إلى حيث يمكنني أن أتناول بعض الشراب ثم نتحدث..

قال "توم":

- إنه يحاول خداعنا..

قال "آربلاستر":

- كلا، فإنني أشم في حديثه رائحة الذهب، فلنسمعه..!

قال "رتشارد":

- إن كنت سأتكلم يا أصدقائي فعليكم أن تفكوا قدمي من القيد..

ففعلوا مما جعل بقية القيد يتهاوى.. واقتادوه إلى حانة.. وحكى لهم "رتشارد" حكاية ملفقة ليكسب الوقت، وكلما مضى في حديثه كانوا يسرفون في الشراب مما عزز من فرصته في الفرار..

حكى لهم حكاية طويلة، حكاية "علي بابا"، لكن "علي بابا" أصبح في حكايته ذا اسم انجليزي، ؟أما المكان فقد استعاض عن **بغداد** بغابة **تونستال وشوربي**.

وسرعان ما سقط "آربلاستر" نائماً من فرط الشرب، واضطرب تمييز "توم" **وهو يسأل "رتشارد":**

- كيف انفتح باب المغارة؟..

- سأريك، لديك الخاتم الذي أخذه مني الربان، أعطوه لي، رائع..! إنني سأمسكه أمامكم.. وسأبعده عنكم قدر الإمكان.. مقدار ذراع..!

قاس "رتشارد" المسافة بينه وبين الباب، تناول الخاتم من الربان ثم رفع المائدة وضرب بها "توم" فسقط تحت المائدة، وقبل أن يفيق الربان وصاحباه من هول المفاجأة هرع "رتشارد" إلى الباب لينطلق منه عدوا إلى الخارج..

كان البدر يتوسط السماء فيحيل الكون في ضوء النهار، طارد "توم" ورجل آخر "رتشارد" وهما يصيحان فخرج أناس من الحانات وانضموا إلى المطاردة.. لكن لم يكونوا في سرعة ورشاقة "رتشارد"، انطلق "رتشارد" بخفة وسرعة إلى أن وصل إلى مدخل زقاق فنظر خلفه.. واكتشف أن جمهرة عظيمة من البحارة تطارده.

لمح "رتشارد" أحد الأبواب مفتوحاً في أحد الأركان فخطا إلى الداخل وتوارى هناك.. بينما استمر مطاردوه في طريقهم..

وانتهت المطاردة ....

وبعد ساعة من اختفائه تلاشت ضجة المطاردين، لكن "رتشارد" آثر البقاء في مخبئه قليلاً..

أخيراً غادر "رتشارد" المخبأ ووصل إلى الخان حيث يتجمع رجاله.. كان يتحسس طريقه في الظلام..

إلى أن سقط في أحد الأركان ونام...

***

- 25 -
لقـاء فـي التقـاطـع

حين صحا "رتشارد" في الصباح مبكراً اتخذ طريقه إلى بيت الخارج على القانون في الغابة، واستخرج أوراق اللورد "فوكسهام" ثم هرع إلى تقاطع القديس **برايد** ليلقي اللورد "جلوشستر" في الموعد..

كان الجو شديد البرودة والنجوم لازالت تتلألأ في السماء. والضوء ينتشر بلا حاجة إلى ضوء المصابيح..

عبر "رتشارد" الأرض المكشوفة بين **شوربي** الغابة إلى أن وصل إلى أسفل التل الصغير الذي لا يبعد كثيراً عن التقاطع. هنا سمع صوت نفير، وصوت قتال.

اخرج "رتشارد" سيفه وجري إلى أعلى التل وإذا يرى معركة طاحنة تدور، ثمانية رجال ضد رجل واحد، لكن ذلك الرجل كان سريع الحركة حتى لقد قتل أحد مهاجميه وأصاب الآخر، مما أخاف بقية المهاجمين..

صاح "رتشارد":

- أثبت يا سيدي! فالعون قادم إليك..!

وصاح وهو يتقدم ويقاتل المهاجمين:

- لأجل السهم الأسود..!

تحول إليه بعض الرجال يقاتلونه في ضراوة وبسالة، كانوا أربعة ضده، سقط واحد منهم، أصابت ضربة رأس "رتشارد" لكن الخوذة الحديدية انقذته..

نفخ الرجل الآخر نفيره مرة أخرى فتحول إليه المهاجمون، قاتلهم في براعة مدهشة ..وإذا بفرسان يخرجون من الغابة للنجدة.. وسرعان ما ألقى المهاجمون بأسلحتهم واستسلموا..

صاح بهم الرجل صاحب النفير:

- خذوهم أسرى..!

اقترب منه "رتشارد" ونظر إليه وإذا به لا يزيد في العمر عن "رتشارد".. كان وجهه أبيض وعار من الوسامة، لكن العينين صافيتان تنطقان بالشجاعة.. وكان أحد كتفيه أعلى من الآخر..

قال له الغريب:

- لقد جئت في الوقت المناسب..

قال له "رتشارد" وقد وقف بأنه شخصية عظيمة:

- يا سيدي اللورد إنك مقاتل مدهش لدرجة أنني حسبتك ستقتلهم وحدك..

سأله الغريب:

- كيف عرفتني..؟
- إنني لا أعلم من أنت..
- لا تعرفني وتلقي بنفسك في المعركة..؟
- لقد رأيت رجلاً بمفرده يقاتل ثلة من الرجال، فاعتقدت أنه من الصواب أن أساعده..

نظر إليه الغريب وهو يبتسم... **وقال:**

- إنك تتحدث بجسارة..

ثم التفت إلى رجاله وقال:

- اشنقوهم..!

لم يتبق سوى خمسة رجال فأخذوهم إلى الغابة وشنقوهم.

ثم قال الغريب للرجال:

- عودوا من حيث جئتم وحين أستدعيكم اقبلوا بسرعة..

فذهبوا..

أنبلج ضوء الصبح وأشرقت الشمس على وجهي الشابين..

قال الغريب:

- أنت ترى كيف أعامل أعدائي.. لكنني أرغب أن تعرف كيف أعامل أصدقائي أيضاً، إنني أشكرك..

وأخذ رتشارد من ذراعيه..

سأله "رتشارد":

- أظني في محله أنك اللورد "جلوشستر"؟!

- أنني هو، فمن تكون..؟

فأخبره "رتشارد" وأراه خاتم اللورد "فوكسهام"..

قال اللورد:

- لقد أتيت بسرعة كما أنني هنا منذ ساعتين. هذه هي المعركة الكبيرة التي أشرك فيها لأول مرة والتي تحدد فيها مصيري.. إن لي عدوين من القادة العظام هما اللورد "ريزنجهام" والسير "دانييل"، إن لهما رجالاً كثيراً يتحكمون في الميناء والنهر ولا مفر من توجيه ضربة إليهم هنا في السر وعلى نحو مفاجئ.. ألديك أوراق اللورد "فوكسهام"؟

- لا، لقد كنت في طريقي لإحضارها، لكن أستطيع أن أخبرك بما تريد.. ولو أن لك ما يكفي من الرجال تستطيع مهاجمتهم الآن، فالعدو لا يزيد عن الألفي رجل..

- لدي سبعمائة رجل في الغابات وسيأتي سبعمائة آخرون من **كيتلي**، وهناك أربعمائة آخرون، أما اللورد "فوكسهام" فلديه خمسمائة على مسافة نصف يوم من هنا، فهل ننتظرهم أم نهاجم الآن..؟

- إنهم سيخرجون للبحث عن هؤلاء الخمس الذين شنقتهم، وإذن فعليك بالهجوم في التو لو أردت مفاجأة العدو..!

نفخ اللورد في نفيره، وبعد دقيقة امتلأ التقاطع بالجنود والفرسان، وقف اللورد على التقاطع وأرسل بعض الرجال برسائل لاستدعاء الجنود جميعاً.. وبعد ربع الساعة كان جميع رجاله على أهبة الاستعداد فوضع نفسه على رأسهم وبدأ يهبط التل إلى **شوربي**، كانت خطته بسيطة..

سيحاصر جزءاً من بلدة **شوربي** من الجانب الأيمن في الطريق إلى أن يصل بقية رجاله.. وبذلك سيحاصر العدو بين اللورد "جلوشستر" (القابض على البلدة) واللورد "فوكسهام" الذي سيصل مع بقية جيش اللورد "جلوشستر"..

كان الخطر المحتمل أن تتم إبادة رجال اللورد "جلوشستر" قبل أن يصل بقية الجيش..

سار جند المشاة خلف الفرسان.. وركب "رتشارد" خلف اللورد، وحين خرجوا من حافة الغابة توقفوا التماساً للراحة..

كانت الشمس الآن في كبد السماء وأمامهم بلدة **شوربي**، والدخان يتصاعد من منازلها..

وتحدث اللورد "جلوشستر"، **قال لـ"رتشارد":**

- في تلك البلدة حيث يتناول الناس فطورهم ستصبح فارساً وسأبدأ حياة الشرف والمجد، سيكون لنا المجد اليوم..!

وانحدروا تجاه **شوربي**..!

***

- 26 -
معـركة شـوربي

بمجرد أن خرج رجال اللورد "جلوشستر" من بين الأشجار والناس يفرون عبر الحقول ويصيحون في رعب..

غضب اللورد متخوفاً أن يكون العدو قد استعد لهم، فلو أنه فشل في دخول البلدة لانتهى أمر قواته ولأبيدت عن آخرها.. لكن الجنود في المدينة لم يكونوا قد استعدوا بعد،فقد خلعوا زيهم الحربي وركنوا إلى الراحة، ولم يكن هناك أكثر من خمسين رجلاً جاهزين للقتال..

كانت الأجراس تقرع والرجال يجرون في الشوارع وهم يصيحون وهو يدقون على أبواب البيوت فخرج أربعون رجلاً وحسب، وحينما وصل اللورد و"رتشارد" إلى المنزل الأول في **شوربي** قابلتهما مجموعة صغيرة من الجند سرعان ما انهزموا..

وبعد مسيرة مائة ياردة داخل البلدة نفخ اللورد في النفير وتوجه إلى اليمين واجتاز رجاله الشارع الجانبي الضيق، وظل آخر خمسين من جنوده على مدخل الزقاق ليدافعوا..

فوجئ فرسان العدو بالهجوم المفاجئ وارتدوا إلى البلدة ليجلبوا النجدة..

كان الجزء الذي احتلته قوات اللورد "جلوشستر" أفقر أجزاء البلدة، وكانت الخمسة شوارع تلتقي عند خان صغير اتخذ اللورد موقعه هناك وعهد إلى "رتشارد" بأحد الشوارع الخمسة.. **قال له:**

- اذهب إلى هناك واظفر بفروسيتك، حقق النصر والشرف لي، فإن ارتفعت ترتفع معي..

ما إن ذهب "رتشارد" حتى قال اللورد لفارس بجواره:

- اذهب خلفه، فلو كان مخلصاً اهمه وسوف أقتلك لو عدت بدونه، فإن كان خائناً أو أصابك منه الشك فاقتله..!

كان الشارع الذي يحرسه "رتشارد" ضيقاً ومظلماً، وما أن وصل إلى منطقة السوق بدا له أن المعركة ستتقرر هناك..

نقل "رتشارد" الموائد والكراسي من أحد المنازل وجعلهم متاريس في الشارع. كان في معيته مائة رجل وضع معظمهم في المنازل على استعداد لرمي من يهاجمهم بالسهام. أما البقية فوقفوا خلف المتاريس.

حدثت جلبة عظيمة في البلدة، كان الرجال والنساء يجرون ويصيحون، والجنود يتحركون ثم انتهت الجلبة، وبدأ جنود العدو من المشاة ورماة السهام يتجمعون ويكونون صفاً تمهيداً لمعركة السوق..

كان معظمهم رجال السير "دانييل"، وبينهم تعرف "رتشارد" على السير "دانييل"..

بعد السكون سمعت أصوات أربعة أبواق من أماكن متفرقة من البلدة.. ودوى صوت نفير خامس من السوق، ثم بدأ الجنود يتحركون وإنهال وابل من السهام على المتاريس وعلى المنازل الموجودة على الجانب..

شعر "رتشارد" بشخص يلمسه ووجد صبياً يقف خلفه ويقدم إليه معطفاً من الجند **ويقول له:**

- هذا من اللورد "جلوشستر"؟ فقد لاحظ أنك لست مسلحاً.. ارتدى "رتشارد" المعطف، هنا انطلق سهمان إلى صدره.. كان العدو بكامل عدده يتحرك إلى منطقة السوق، لقد اقتربوا من "رتشارد" فصاروا على مرمى

السهام، هنا أصدر "رتشارد" أوامره فانطلقت السهام كالمطر من خلف المتاريس ومن داخل المنازل.. تصايح جنود العدو وراحوا يهاجمون ونشب صراع مرير. حاول العدو اختراق المتاريس لكن رجال "رتشارد" استبسلوا في صدهم.. استمرت المعركة دقائق إلى أن دوى نفير يستدعى قوات العدو.. وكانت المتاريس على وشك التداعي..

ارتد الجنود المشاة الآن، أما الفرسان الذين كانوا مستعدين اندفعوا إلى المتاريس، لكن أولهم سقط وداسه الآخرون.. أما الثاني فقفز إلى اليمين وقتل أحد رماة السهام بحريته.. ثم انتزع من فوق جواده وقتل..

ثم اندفع الفرسان نحو جنود "رتشارد" القليلين الذين خلف المتاريس كالبحر الهائج، استبسل "رتشارد" ورجاله في الدفاع بالسيوف، فبدوا كمن يقطع الأشجار في الغابة، تكونت متاريس أخرى..

وانطلقت السهام عاصفة من نوافذ المنازل فتقهقر فرسان العدو.. ولكن بعضهم اخترق المتاريس..

هنا كان في انتظارهم اللورد "جلوشستر" ورجاله.. فاندحروا وتراجعوا متبعثرين وصيحاتهم تتعالى من الألم...

التف "رتشارد" ورجاله حول المنسحبين وانضم إليهم الرماة الذين كانوا في المنازل، فأعملوا سيوفهم ورماحهم فيهم، وبعد دقائق انتهى العدو وأبيدت قواته..

رفع "رتشارد" سيفه عالياً وصاح يحمس رجاله.. ترجل "جلوشستر" عن جواده وتقدم للأمام. كان وجهه شاحباً وعيناه تبرقان كالجواهر، وصوته ملئ بالزهو من الانتصار في المعركة.. وابتسم وهو ينظر إلى جثث العداء.. **وقال:**

- اقتلوا خيولهم، فهي خطر علينا...

ثم قال لـ"رتشارد":

- لقد أدخلت السرور على نفسي، فاركع على ركبتيك! ولمس كتفي "رتشارد" بسيفه ونصيبه فارساً..

وقال له:

- الآن يا سير رتشارد لو رأيت اللورد ريزنجهام فأرسل لي مبعوثاً في الحال ولو كان آخر رجل عندك، أرسله ليخبرني، ولو قتل اللورد ريزنجهام شخص غيري سيكون هذا الانتصار عندي بلا معنى..

كان سهام العدو تنهمر فوقهم، **قال أحد الفرسان:**

- سيدي اللورد، لماذا تنتظر هنا..؟

- إن المعركة هنا، ويجب أن نفوز هنا، لكننا سوف نذهب ونتفقد الأماكن الأخرى، سيقوم السير "رتشارد" يتولى القيادة في هذا المدخل، إننا نستطيع أن نثق به، لكن يا سير "رتشارد" أسوأ أجزاء المعركة قادم فلا تنم..!

وتقدم من "رتشارد" ونظر في عينيه؛ وصافحه... كانت عينا اللورد "جلوشستر" عيني رجل مجنون..!

***

- 27 -
معركة شوربي (تكملة)

كانت السهام تنطلق بسرعة أقل، كان العدو يتقهقر على كل الجبهات، اكتسى الجليد بالدم، وتبعثرت عليه جثث الرجال والخيل وتشكلت الخسارة واضحة في جبهة "رتشارد"، فقد غص المدخل بالجثث.. لم يتبق من المائة رجل الذين كانوا تحت قيادته سوى سبعين، واشرأبت الرقاب وهفت القلوب إلى النجدة..

قال "رتشارد" لرامي السهام بجانبه:

- لقد أبلى الرجال بلاء حسناً..

- أجل، ولقد كسبت النصر العظيم للورد "جلوشستر"، لكن لو انسحبت من هنا لقتلك من الخلف..

نظر إليه "رتشارد" فلي دهشة **وقال:**

- من الخلف..!

- أجل فاللورد جندي شجاع، ولكنه اعتاد أن يأمر فيطاع، ولو تقاعس أي إنسان يموت، إنه سيصبح رجلاً عظيماً..

نظر "رتشارد" إلى موقع السوق وقد خلا، لقد عاد إلى سابق عهده.. قال:

- لا يعجبني هذا الهدوء.. إنهم يعدون لنا مفاجأة..

في هذه اللحظة بدأ الرماة يتقدمون نحو المتاريس ونزلت السهام لكثافة لكنها لم تؤثر في رجال "رتشارد"، نظر "رتشارد" حوله تخوفاً من خطر خفي..

فجأة انفتح باب في شارع وانطلق منه كوكبة من الرماة، شكلوا صفاً وراحوا يصبون شلالاً من السهام على رجال "رتشارد" بينكما كان يتقدمونهم يهاجمون في ضراوة..

استدعى "رتشارد" جنوده من داخل المنازل، وجعلهم في مواجهة المهاجمين.. انفتحت أبواب كثيرة في الشارع واندفع الرجال منها، كان من الواضح أنه لن يستطيع الدفاع عن موقعه أكثر من ذلك..

كان الخطر الأعظم يكمن عند مؤخرة جيشه. ارتد "رتشارد" إليها وسرعان ما اقتحمت المتاريس فهرع جنوده إلى المنازل يتحصنون فيها..

حمى وطيس المعركة، قاتلت المؤخرة ببسالة تحت قيادة "رتشارد" وبدأ رجاله يتبعثرون وباتت الهزيمة وشيكة..!

فجأة سمع صوت نفير وصيحات مدوية، وفي هذه الأثناء بدأ المهاجمون يرتدون على أعقابهم عائدين إلى منطقة السوق.

كان النفير يتواصل ليجمع الجنود المبعثرين من قوات العدو، لكن هؤلاء فروا هاربين، بينما اندفع إلى ساحة المعركة فرسان أقبلوا من منطقة السوق يقودهم اللورد "جلوشستر" وهم يسرعون إلى حيث اللورد "ريزنجهام" الذي كان ينتظر الفرصة المناسبة ليهاجم بقواته...

التقى الطرفان، لورد "ريزنجهام" الطويل الرائع القسمات، واللورد "جلوشستر" القصير الدميم..

وسرعان ما أطلق اللورد "ريزنجهام" العنان لجواده فارا من ساحة القتال..!

***

- 28 -
بعـــد المعـــركة..

بدأ رتشارد يحصى خسائره، زال الخطر لكنه كان مرهقاً للغاية لكن لم يكن الوقت قد حان بعد للراحة، سينشب قتال في الشوارع، وعليه أن يعثر على "جوانا" ويحميها، تصفح وجوه رجاله وانتقى ثلاثة أو أربعة ممن يمكنه الوثوق بهم، وقادهم مخترقاً منطقة السوق إلى الشوارع فلي الجانب الآخر..

كانت المعارك تدور في كل مكان من الشوارع. كان المدافعون في أحد المنازل يلقون الموائد والكراسي على رؤوس المهاجمين.. وكان الجليد تغطيه جثث القتلى..

قاد "رتشارد" رجاله باتجاه الكنيسة، لكن حين وصل إلى نهاية الشارع الرئيسي أطلق صيحة. لقد هوجم قصر السير "دانييل"، كانت البوابات قد تم اقتحامها وتحطيمها، وفي الحجرات العلوية كان لا يزال القتال دائراً على أشده، وبينما "رتشارد" يتقدم انفتحت نافذة وألقى منها أحد جنود السير "دانييل" إلى الشارع ..

عصر قلب "رتشارد" رعباً، فجرى إلى المنزل وصعد إلى الحجرة التي كان فيها مع "جوانا". حجرة مدمرة.. الموائد والكراسي مقلوبة، والستار يحترق.. انتزع "رتشارد" الستار المحترق، ثم توقف حائر. ماذا يصنع؟

لقد ذهب الجميع، السير "دانييل"، والسير "أوليفر"، و"جوانا"..

قبض على أحد الرماة من معطفه.. **وسأله**:

- أكنت هنا حين استولوا على القلعة..؟

حاول الرجل أن يتملص، لكن "رتشارد" شدد قبضته عليه.. **وعاد يسأله:**

- هل كان السير "دانييل" في القلعة حين استولوا عليها؟
- أجل، لكنه هرب من طريق الحديقة..
- هل كان وحده..؟ هل كانت بصحبته امرأة؟
- لم أر معه أحداً..
- شكر لك..

نطقها "رتشارد" وقد واتته فكرة، فهبط إلى الساحة وجرى عبر الحديقة إلى باب الكنيسة وكان مفتوحاً. كان داخل الكنيسة غاصا بالناس والقساوسة يصلون طلباً للرحمة..

هرع يصعد الدرجات المؤدية إلى البرج فاستوقفه قس و**سأله**:

- في أي جانب أنت..
- في جانب اللورد "جلوشستر"..
- اللورد "جلوشستر"! هل انتهت المعركة بما يسوء..؟
- لقد انتهت المعركة بموت اللورد "ريزنجهام" في الساحة..

دفع "رتشارد" القس جانباً وصعد الدرجات الباقية.. وهو ينظر نحو البحر..لا سفن في الميناء، لكن تغطي القوارب البحر وفيها الفارون من لهيب المعركة..قرب الميناء كان الرجال يتقاتلون ، وثمة منازل تحترق..

على الشاطئ كانت فرق الفرسان تتجه إلى الغابة والآخرون يحاولون ردهم إلى البلدة..

راقب "رتشارد" مجموعة من الفرسان قرب حافة الغابة، كانت ألوان زيهم تؤكد أنهم رجال السير "دانييل" هبط السلم، فعليه أن يعثر على السير "جلوشستر" ويحصل على رجال يساعدونه..

القتال في الشوارع انتهى فجرى "رتشارد" هنا وهناك بحثاً على القائد. الشوارع تغص بالجنود الجوالين، لكنهم لا يدرون أين القائد، أخيراً عثر عليه "رتشارد" يقوم المقاتلين قرب الميناء..

صاح به اللورد حين رآه:

- مرحي يا سير "رتشارد شيلتون"، إنني مدين لك بالنصر، فاطلب مني ما تشاء وسألبي لك طلبك..

- لقد هرب الرجل الذي أكرهه مع الفتاة التي أحبها، فأعطني خمسين رجلاً لأطارده..

- من يكون..؟

- السير "دانييل براكلي"..

- ستكون خدمة عظيمة لي لو استطعت الظفر به..! أعطه يا "كاتبي" خمسين رجلاً. والآن يا سير "رتشارد" عليك أن تفكر في شيء يرفع مرتبتك ويمكنني تحقيقه لك..

في هذه الأثناء كان جنود اللورد قد دخلوا أحد الحانات قرب الميناء وقبضوا على من فيها وأحضروهم كسجناء أمام اللورد. كان بينهم بحار عجوز ومعه كلب..

صاح اللورد:

- اشنقوهم..!

قال "رتشارد":

- يا سيدي اللورد، لقد وجدت شيئاً يمكنك منحي أياه، فهب لي حياة وحرية هذا البحار العجوز..

- إنني لا أحب مشاهد الرحمة.. لكنني وعدتك ولك أن تأخذه، لكنك بذلك فقدت صداقتي..

التفت "رتشارد" إلى البحار العجوز وسأله:

- يا "آربلاستر"، لقد آذيتك، لكنني أعوضك بذلك عما اقترفته..

نظر إليه البحار ولم يقل شيئاً، وبدا جلياً أنه لا يهتم سواء أمات أم عاش..!

عاد "رتشارد" يقول له:

- هلم! لقد وهبتك حياتك، وهذا يساوي أكثر من سفينة، وقد كلفني خسارة صداقة اللورد..!

- لو حصلت على سفينتي سأكون بأمان في البحار ومعي "توم"، لكنك انتزعت سفينتي، وها أنذا شحاذ، ومات صديقي "توم"، ولن يمكنه أن يبحر بعد ذلك..

غمرت الشفقة قلب "رتشارد" وحاول أن يلمس يد الرجل لكنه سحبها بعيدا...

قال:

- كلا، فلننس ذلك، لقد حطمت حياتي وحسبك هذا مني!

امتلأت عينا "رتشارد" بالدموع، رثى للرجل العجوز المسكين الذي زحف عبر الجليد يتبعه كلبه، بدأ "رتشارد" يفهم أي دور نلعبه في الحياة.. وإنه لا ينفع الندم، فهو لا يعيد لنا شيئاً مما ضيعناه..!

جمع "كاتبي" الفرسان لـ"رتشارد"، وضع "رتشارد" نفسه في المقدمة وانطلقوا، وبينما هم مسرعون تناهى إلى سمعه أصوات المتقاتلين والدمار. استيقظ قلب "رتشارد".. شعر أنه قلبه مملوء باليأس..

حين وصل إلى حافة البلدة رأى آثار عربة على الجليد.. في منتصف الطريق بين البلدة والغابة هوجمت مجموعة السير "دانييل" من رماة السهام، وانتشرت جثث القتلى على الأرض.. وبين القتلى تعرف "رتشارد" على صبي.. فترجل عن جواده وجثا ورفع رأس الصبي..

وأتاه صوت **الضعيف يقول**:

- آه، أنها على مبعدة فأسرع باللحاق بها..!

كانت هذه "أوليكيا".. فرفعها إلى جواده، وركب ومضى به الجواد خبباً، **فقالت له:**

- لماذا تأخذني..؟ أنك بهذا تقلل من سرعتك..!

قال لها:

- إن **شوربي** مليئة بالقتال والجنون وأنت هنا في أمان فاحمدي الله..
- دعني، فلن أشكر أيا منكم!
- سواء أحببت أم لا فسأحملك، فأرد شيئاً في عنقي لك..

فسكتت، **ثم سألته فجأة:**

- أين عمي اللورد "ريزنجهام"..؟
- كنت أود لو أسمعتك نبأ ساراً، لقد رأيته ذات مرة في المعركة، فلنأمل أن يكون بخير..!

***

- 29 -
ليلة فـي الغـابة..

كان محققاً أن السير "دانييل" الآن في طريقه إلى القلعة، لكن لكثافة الجليد لم يكن قادراً على الوصول قبل الصباح في اليوم الثاني...

وها هو "رتشارد" أمام اختيارين:

أما أن يتبع السير "دانييل" ويهاجمه الليلة في معسكره.. أو يقطع عليه الطريق إلى القلعة..!

وعند حافة الغابة تجمع رجال السير "دانييل".. وأصبح الوصول إليهم ميسوراً..

سأل "رتشارد" أحد رجاله:

- ما رأيك، هل نتبعهم أم نمضي إلى **تونستال**؟

أجابه:

- بل نمضي في آثرهم ونشتت شملهم..

لكن بعد مسيرة ساعة تبعثرت الآثار هنا وهناك، ولم يعرف "رتشارد" أي طريق يتبع **فقال:**

- فلنذهب إلى الغابة المقدسة..فإنها أقرب من **تونستال**..

فارتدوا وساروا باتجاه الشمال. تحركوا في بطء خلال الجليد، لقد غربت الشمس وتلاشى ضوءها الوردي في الغرب، وسرعان ما كانوا يتجولون في الظلام تحت النجوم الباردة..

كان من العبث أن يمضوا في الظلمة.. فانتظروا سطوع القمر ليروا طريقهم، لذلك توقفوا وأوقدوا ناراً وجلس الجنود حولها، أحضر "رتشارد" طعاماً لليدي "أوليكيا" وكانت جالسة بعيدة عن الآخرين.. فلم تأخذه..

قالت:

- لن أتناول الطعام ممن قتلوا عمي..

قال:

- أقسم أنني لم ألمسه..
- فأقسم لي أنه لا يزال على قيد الحياة..!
- لن أقول الكذب ، ولكنني اظنه قد مات
- لقد أخبرني السير "دانييل" أنك كسبت المعركة ومن ثم فأنك القاتل وها أنت تريدني أن آكل معك!
- غمر الحزن قلب "رتشارد"، عاودته صورة "أربلاستر" العجوز وما سببه من آلام..

سألته:

- ماذا كان دورك في المعركة..؟ أنك لا تنتمي لأي فريق وأنت مجرد شاب، فلماذا حاربت؟
- لا أدري، فإذا لم يحارب الرجل في صف ما. فإنه سيحارب في صف آخر..!
- من ليس لديهم حكمة يجب ألا يقاتلوا على الإطلاق..
- لقد أدركت خطئي .. لقد تسرعت.. سرقت سفينة وتسببت في وفاة وأسفت لذلك لقد قاتلت في الصباح استجلاباً للشهرة، وتسببت في قتل عمك وربما أصبح للورد "جلوشستر" ملكاً..! وهذا يؤذي انجلترا. أوه يا سيدتي، إنني أرى أخطائي.. ولا أستحق الحياة.. حين انتهى من رحلتي سأمضي لأعيش وحدي، لن أتزوج "جوانا" وسأصبح قساً وأصلي لروح عمك طوال حياتي..

خيل إليه أن الليدي "أوليكيا" تضحك..!

قال:

- سيدتي العزيزة، ألا يرضيك هذا؟ سأضحي بكل شيء، وذلك في اليوم الذي أصبحت فيه فارساً واعتقدت أنني أسعد إنسان في الوجود..!

قالت:

- هلم، فإنك قائد عظيم.. لماذا لا تأكل؟
- لن أفعل بدونك..
- هلم، فسأكل معك.. واحدة بواحدة.. وأكلا معا..!

***

- 30 -
رتشارد وجوانا..

بدأ الجميع في الاستعداد، أطفئت النيران، وتسلق "رتشارد" شجرة عالية منها استطاع أن ينظر إلى الغابة، إلى اليمين شاهد بقمة ضوء حمراء..وراح يلوم نفسه لأنه لم ينظر من قبل، فهو لم يوقد نار يمكن أن تدل السير "دانييل" عليهم..

كان الممر الذي عسكر فيه السير "دانييل" شديد الانحدار، فقرر "رتشارد" أن يذهبوا إليه سيراً على الأقدام، فترك عشرة رجال للحراسة واصطحب الباقي معه..

هبطوا إلى الوادي ووصلوا إلى النهر المغطي بالجليد والثلج، فأصبحوا على مسافة نصف الميل من السير "دانييل"..

سمعت "أوليكيا" صوتاً فرقعت أصبعها وتوقفت لتسمع..

قالت:

- إنني سمعت خيلاً آتية من الغرب، بينما كانوا يتقدمون شاهدوا آثاراً على الجليد تدل على أنهم اقتربوا كثيراً من المعسكر، هناك أخبر "رتشارد" رجاله بأن ينتشروا ويطوقوا المعسكر، وضع الليدي "أوليكيا" قرب شجرة ضخمة وتقدم باتجاه النار المشتعلة.. أخيراً ومن خلال فتحة في الغابة رأى معسكراً ، ثمة نار عظيمة مشتعلة، يجلس حولها نحو اثنى عشر رجلاً، لكن لم ير "رتشارد" آية جياد.. بدأ يشعر بأنه مخدوع، كان "بينيت هاتش" جالساً هناك.. وعلى مسافة يسيرة شاهد "جوانا سيدلي" وزوجة السير "دانييل"..

قال لنفسه:

- حسن، إن لم أصل إلى جيادهم فيكفيهم "جوانا"...!

سمع صفارة، وكانت تلك الإشارة المتفق عليها بأن رجاله قد حاصروا المعسكر..

نهض "بينيت"، وقبل أن يستخرج سلاح نا دى "رتشارد":

- "بينيت" يا صديقي العزيز، استسلم..! إنك ستضحي بالأرواح لو قاتلت..!

- أهو أنت يا مستر "شيلتون"..؟ أتطلب مني أن أستسلم..؟

- كم معك من الرجال..؟

إنني أخبرك يا "بينيت" بأن معي ما يفوق في العدد رجالك، وهم قد حاصروكم، معي أربعون رجلاً هنا وبهم يمكنني أبادتكم..

- أنك أسف يا مستر "شيلتون" لكنني سوف أؤدي واجبي، فلتساعدك السماء..

ونفخ في البوق، لم يفكر "رتشارد" في الهجوم بسبب السيدات، التقط رجال "هاتش" أسلحتهم، وبينما كانوا يفعلون جرت "جوانا" إلى جانب "رتشارد" صائحة وهي **تمد إليه يدها:**

- أنا هنا قادمة..

لم يصدر "رتشارد" الأمر بسبب الليدي "براكلي"، لكن بدأ زملاؤه في الرمي دون انتظار أوامره، ووقع "بينيت هاتش" أرضاً، **هنا قال "رتشارد":**

- إلى الأمام، صوبوا يا رجالي، صوبوا من وراء الأشجار!

- هنا وصلت أصوات جياد كثيرة تسرع على الجليد.. وسمعت أصوات أبواق..

صاح "رتشارد":

- أسرعوا..! التفوا حولي..

لكن رجاله كانوا مبعثرين وقد هاجمهم فرسان السير "دانييل" فجروا إلى الأشجار.. ووقف "رتشارد" وقذفهم الخطأ الذي وقع فيه، لقد رأى السير "دانييل" نيرانهم، فانسحب بفرسانه بعيداً ليهاجم "رتشارد" من المؤخرة بينما هو مشغول بالقتال..

كان السير "دانييل" قائداً حكيماً، ولقد تصرف "رتشارد" كالولد أحمق، هنا وقف "رتشارد" و"جوانا" وهي تتحسس يديه. كانا وحدهما ورجاله وخيولهم مبعثرة في الغابة..

فكر "رتشارد":

- فلتساعدني السماء.. أنه حظى أن صرت فارساً هذا الصباح مما يشعرني بالفخر..!

ثم راح يعدو ممسكاً بيد "جوانا"..

تصاعدت صيحات رجال السير "دانييل" في الليل وهم يصيدون رجال "رتشارد"، اندفع "رتشارد" يجري، والقمر يتلألآ على الجليد، لكن كانت هناك ظلال سوداء تحت الأشجار، كف "رتشارد" و"جوانا" عن الجري وتواريا في ظل شجرة وهما يسمعان المطاردين مبعثرين في أنحاء الغابة..

قال "رتشارد":

- لو أمكنني تجميع رجال لكنت أهاجم..

قالت "جوانا":

- وماذا يهم..؟ ها نحن معاً مرة أخرى..

نظر إليها، فنظرت إليه بابتسامة..

قال لها:

- يا أعز مخلوق عندي، لو تغفرين لي خطئي لن أعبأ بما يجري لي، هلمي معي لنذهب إلى الغابة المقدسة حيث يقيم اللورد "فوكسهام"، هناك يمكننا أن نتزوج، لقد فقدت صداقته اليوم رغم أنه نصبني فارساً، وها أنا مهزوم وفاقد لجنودي، لكن يا عزيزتي إنني لا أعبأ بكل هذا إن كنت لازلت على حبي وعلى استعدادك للزواج معي..

فسمعا صوتا خلفهما **يقول:**

- لقد حسبت أنك كنت ستصبح قساً..!

صاحت "جوانا":

- "أوليكيا"..!

- أجل، ؟"أوليكيا" التي تركت شبه ميتة، والتي لولا حبيبك هذا لماتت، أنه لسبب في كوني لازلت حية..

صاح "رتشارد":

- آه يا سيدتي، لقد نسيتك..!فسامحيني وها أنت تريني أنني عثرت على "جوانا" لتوى..!

- إنني أعرفك أنك لم تكن تقصد نسياني، فهلموا بنا إلى الغابة المقدسة، لأن الغابة هنا خطرة وشديدة البرودة..

انطلقوا تحت الأشجار غير المورقة، وضوء القمر يغمرهم، وفي الظلام وصل إلى سمعهم أصوات رجال السير "دانييل" في المطاردة، لكن "رتشارد" و"جوانا" سارا في سعادة ومن خلفها تتبعهما "أوليكيا"..

وأخيرا أطلوا على الغابة المقدسة من قمة التل كانت النوافذ الكبيرة تتلألآ وأبراجها منتصبة في ضوء القمر.. في كل مكان نيران تتلظى في المعسكر، والأرض مغطاة بالأكواخ..

قال "رتشارد":

- هناك رجال اللورد "فوكسهام".. وتستطيع بهم أن نهاجم السير "دانييل"..

كان السبب في النيران المتوهجة في النوافذ وجود اللورد "جلوشستر" في الغابة المقدسة، ولقد مثل "رتشارد" أمامه، كان "جلوشستر" مرهقاً للغاية فجلس ورأسه بين يديه، وكان اللورد "فوكسهام" إلى يساره..

قال "جلوشستر":

- حسن يا سير، هل أحضرت لي رأس السير "دانييل"..؟

أجابه "رتشارد":

- يا سيدي اللورد، إنني لم أستطع العودة برجالي.. فقد هزمت..!

قال "جلوشستر":

- يمكنك الذهاب..!

قال اللورد "فوكسهام":

- بل فليمكث! إن أمامه مهمة ليؤديها لي هل وجدت الفتاة يا مستر "شيلتون"؟!

- أجل .. وهي موجودة في هذا المنزل..!

- أحقاً..؟ حسن، إذن يا سيدي اللورد فلنقم لهما الزواج في الغد، قبل انطلاق الجيش. ذلك الشاب..

قال "كاتسباي":

- الفارس الشاب..

قال "جلوشستر":

- لقد جعلته فارساً تقديراً لخدماته. إنه شجاع، لكن ليس له عقل رجل، لكن، لو أنه يريد الزواج فلندعه يتزوج..!

***

- 31 -
مقتــل السيــر دانيــيل

في الصباح التالي صحا "رتشارد" مبكراً وخرج في جولة، تفقد الجنود الذين كانوا على الأهبة بأسلحتهم، ثم واصل سيره في الغابة المتجمدة، يترقب شروق الشمس، وبينما هو يسير بزغ ضوء النهار قوياً وصافياً.

كان الشرق ورديا بأشعة الشمس، والريح باردة.. استدار ليعود للمنزل فأبصر برجل خلف شجرة.. **فصاح:**

- قف..! من هناك..؟

خرج الرجل ملوحاً بيده، كان في ثياب الحجاج، لكن "رتشارد" عرف فيه السير "دانييل".. فانطلق نحوه شاهراً سيفه، وضع السير "دانييل" يده داخل ثوبه كأنما يستخرج سلاحاً سرياً..

قال:

- حسن يا "رتشارد"، كيف هذا..؟ هل تعلن الحرب على المهزومين؟ لقد دمرني "جلوشستر"، وأنا ذاهب إلى الغابة المقدسة ثم إلى خارج البلاد..

- لا يمكنك الذهاب إلى الغابة المقدسة..

- لم لا ..؟

- أنصت يا سير "دانييل"، إذن هذا صباح زواجي وهذه الشمس ستسطع على أسعد أيام حياتي. المفروض أن أقتلك لأنك قتلت أبي وحاولت قتلي، لكنني أنا أيضاً اقترفت الآثام ولن أكون حكماً على الآخرين، ولأنني لن أحاكمك فاذهب أنت حر.. وأطلب من الله المغفرة، ولقد غفرت لك، لكن لا تذهب إلى الغابة المقدسة، فإنني لن أسمح بوجود أي جاسوس هناك، فإذا ذهبت أخبرت الجنود فاعتقلوك..

- ليس لدي مكان آخر أكثر أماناً..

- هذا لا يعنيني، فاذهب شرقاً أو غرباً أو جنوباً، لكن الغابة المقدسة محرمة عليك..

- إنك تسرع بي إلى حتفي..!

- كلا، لكن إن أردت أن تقاتلني فهيا، وسأقاتلك وحدي وسأنتقم لمقتل أبي..

- إن لديك سيفاً طويلاً ومعي سكين وحسب..

- إنني أثق في الله، والآن هلم..!

وألقى سيفه بعيداً..

- لقد قلت ذلك لأختبرك وحسب، فإنني لا أريد أن أؤذيك..

- فاذهب إذن قبل أن يتأخر الوقت، وبعد خمس دقائق سأستدعي الجنود..

- حسن يا "رتشارد"، سأذهب وفي المرة القادمة ستأسف على قسوتك..

وارتد على عقبيه وبدأ يتحرك بعيداً بين الأشجار و"رتشارد" يراقب عن كثب..

على أحد جوانب الممر شجرة سميكة، فجأة انطلق سهم من الشجرة فانبطح السير "دانييل" على الجليد..

جرى "رتشارد" ورفعه عن الأرض، كان وجهه قد أسود من الألم وبدنه كله يرتعد.. **همس:**

- أهو سهم أسود..؟

أجابه "رتشارد" بحزن:

- أسود..!

حاول السير "دانييل" أن يواصل الحديث، بيد أنه شهق ومات بين ذراعي "رتشارد"..

مدده "رتشارد" برقة على الجليد وتلا الصلاة، وإذا بالشمس ترتفع في السماء وبدأت الطيور في الغناء..

وحين نهض "رتشارد" واقفاً، اكتشف وجود رجل آخر راكع على ركبتيه خلفه، كان رأسه محنياً ووجهه مغطي بيديه، أخيراً نهض الرجل وإذا به "إيليس داكويرث".

قال:

- "رتشارد"، لقد فعلت أفضل شيء وسامحته، وأنا فعلت أسوأ شيء وقتلت عدوي فصل من أجلي..

تناول "رتشارد" يده **وقال:**

- سوف أصلي من أجلك.. لكن أليس من الخير أن نسامح الآخرين؟ لقد مات "بينيت هاتش"، وها هي جثة السير "دانييل"، لكن لا يزال السير "أوليفر" حياً، ألن تجعله يذهب..؟

- إن السهم الأسود لن يحلق بعد الآن، وهؤلاء الذين على قيد الحياة سيظلون أحياء، وبالنسبة لك فاذهب إلى حيث يدعوك حظك ولا تفكر بعد ذلك يا "إيليس"..

***

- 32 -
نهـــايــة سعـــيدة

كانت الساعة التاسعة تماماً في الصباح قاد اللورد "فوكسهام" "جوانا" إلى الكنيسة في الغابة المقدسة وسارت إلى جوارهما "أوليكيا ريزنجهام"، نزل "جلوشستر" إلى الممر، كان وجهه مثقلاً، لكنه توقف وسأل:

- أهذه هي الفتاة..؟

أجابه "فوكسهام":

- أجل..

نظر لورد "فوكسهام" إلى "جوانا" وقال لها:

- إنك جميلة، ولقد أخبروني بأنك غنية وكنت قادر على تدبير زوج أفضل لك..

قالت:

- سيدي اللورد، أفضل أن أتزوج السير "رتشارد".

فسألها الدوق:

- ومن هذه...

أجابه اللورد "فوكسهام":

- إنها "أوليكيا ريزنجهام"..

قال "جلوشستر":

- آه، حسن، يجب أن أسرع بالمغادرة فالقائد في وقت الحرب ليس لديه وقت ليضيعه..

وجدوا "رتشارد" جالساً في الكنيسة، وتزوج "جوانا".

وحين خرجوا بوجوه سعيدة في الهواء البارد وضوء الشمس، شاهدوا قوات اللورد "جلوشستر" على أهبة الاستعداد يسيرون على الطريق، ورأيته تحملها مجموعة من حاملي الحرب..

جلسوا إلى الإفطار، وجلس "هاملي" إلى جوار "أوليكيا"، وفي الخارج صوت الجنود يسيرون، لكن "رتشارد" و"جوانا" جلسا جنباً إلى جنب متشابكي الأيدي وينظران إلى بعضهما البعض ينظر إلى تفيض بالحب..!

***